الوصول إلى القلب الخاشع

أ / ريم عبد الفتاح

المشرفة العامة على أكاديمية همتي رُقي أمتي

مفرغ من دروس الأستاذة الفضلى أمة العزيز

ريم عبد الفتاح جزاها الله عنا خير الجزاء

لسماع الدروس الصوتية ادخلي لقناة

للنساء فقط (من هذا الرابط):

https://t.me/joinchat/O-sYXSsxnc8i6c3a

المقدمة

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بثلاثة سلاسل عن القلوب، أنصح كل من يجتهد للوصول إلى القلب الخاشع الاستماع إلى تلك السلاسل المباركة؛ أخذنا سلسلة أمراض القلوب، وكانت ثلاثون درساً مُبسطة خلال خمسة عشر دقيقة، كل درس عشرين دقيقة تقريباً، موجودة في أول قناة الدورات العلمية.

كذلك مَنَّ الله علينا بدراسة تهذيب مدارج السالكين، وكلها مدارج وضعها ابن القيم، وهو أفضل من كَتَبَ في أعمال القلوب؛ وقد فتح الله عليه في علم التزكية، وما من عالم فتح الله -عز وجل- عليه في التزكية كهذا العالم الجليل ابن القيم.

مُتبقى في هذه السلسلة خمسة أو ستة دروس تقريبا، مُدة الدرس من نصف ساعة إلى خمسة واربعين دقيقة، ذكرت فيها ستة وستون منزلة، ذكرها ابن القيم في كتابه، منها منزلة اليقظة، ومنزلة المُراقبة، ومنزلة الهمة، فمن أراد أن يستمع لأعمال القلوب من الصبر والرضا واليقين فقد تم شرحها في تهذيب مدارج السالكين.وهذه سلسلة الوصول إلى القلب الخاشع التي تقع في خمسة عشرة درساً، موجودة على قناة حياة القلوب وسوف أضعها على قناة الدورات العلمية.

♦ تحدثت في هذه السلسلة عن:

- القلوب.
- أحوال القلوب.
- كيفية الوصول إلى القلب السليم.
- الآيات الواردة في قسوة القلب.
- كيفية معالجة قسوة القلب والوصول إلى الخشوع.

- أهمية أعمال القلوب والاجتهاد في إصلاح القلوب.
- أحوال الناس من حيث الاهتمام بأعمال القلوب وبالقلوب عامة.

أسأل الله -عز وجل- أن يفتح علينا وأن يُيسر لنا أمرنا، وأن يجعل لنا من أمرنا يسرا.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما. اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ونعوذ بك من علمٍ لا ينفع. اللهم إنا نسألك علماً يُباشر قلوبنا فتخشع وتنيب وتُخبت لك يا رب العالمين. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقِ وأنت خير الفاتحين. اللهم اهدنا لما أُختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الوصول إلى القلب الخاشع يتطلب أمرين:

- تعلم أن الله -عز وجل- لا يُريد منك إلا قلبك، قال تعالى {يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالࣱ وَلَا بَنُونَ} {إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبࣲ سَلِيمࣲ} [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٨٨-٨٩]

لا ينفع مالٌ ولا جاهٌ إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، فالله ينظر إلى القلب السليم، و لنتأمل قول رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ) رواه مسلم
كذلك قال الله تعالى، {رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ} [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ آية ٨]

- أن نسأل الله ليلاً نهاراً أن يرزقنا قلوباً خاشعة ويكون هذا همك.

كما كان حال النبي ﷺ (اللهم يا مُقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ يا مُصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك)

فكم مره سألت الله -عز وجل- أن يرزقك ويَمُنَّ عليك قلباً خاشعاً؟ نحن مقصرين غاية التقصير، نسأل الله -عز وجل- أن يعفو عن تقصيرنا. لابد أن يكون هذا الأمر هَمٌ عندك، ولنسأل الله -عز وجل- بالأدعية النبوية أن يرزقنا هذا القلب الخاشع، (اللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع ومن عين

لا تـدمع ومـن دعـاء لا يسـمع ومـن بطـن لا تشـبع، نعـوذ بـك مـن هـؤلاء الأربع)

فاسـأل نفسـك دائمـاً: هـل قلبـي يَصـلُح لأن ينظـر الله تعـالى إليـه؟ هـل هـذا القلـب خاليـاً مـن الريـاء والكِبـر والعُجـب والحسـد والنفـاق والضـغينة؟ هـل هـذا القلـب بـهِ غفلـة جعلـت منـه قلبـاً قاسـياً لا يخشـع لله؟نسـأل الله -عـز وجـل- أن يرزقنـا قلوباً سليمةً خاشعةً مُنيبةً مُخبتةً لك يارب العالمين.

الدرس الاول

أهمية القلب:

يجـب أن نجتهـد فـي تطهيـر قلوبنـا ممـا لا يُرضـي الله -عـز وجـل- انظـر إلـى سـورة المـدثر وهـي مـن أوائـل مـا نـزل علـى رسـول الله ﷺ وقـد أمـره الله -عـز وجـل- بتطهيـر قلبـه؛ قـال تعـالى {وَثِيَابَـكَ فَطَهِّـرْ} [سُـورَةُ المُـدَّثِّرِ آيَـة ٤] وقـد أجمع المفسرين علي أن المقصود بالثياب هنا القلب.

القلـب مثـل الأرض، وكمـا يجـب علينـا تطهيـر القلـب قبـل الغـرس فيهـا، كـذلك يجب علينا تطهير القلب قبل أن نغرس فيه كل ما يُرضي الله عنا.
قـال رسـول ﷺ (أَلَا وَإِنَّ فِـي الْجَسَـدِ مُضْـغَةً إِذَا صَـلَحَتْ صَـلَحَ الْجَسَـدُ كُلُّـهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). متفق عليه

فصـلاح العمـل مُـرتبط بِصـلاح القلـب، وفسـاده مـرتبط بفسـاد القلـب. تخيـل مـن يُـؤدي العبـادات مـن صـلاة وصـيام وحـج وغيرهـا وهـو يُرائـي النـاس حتـى يُقال عنه أنه صلى وصام وحج، فهل سوف تنفعه تلك العبادات؟

حكم العبادات القلبية:

العبادات القلبية أفرض وأهم على العبد من معرفة أعمال الجوارح لأنها الأصل؛ وأعمال الجوارح فرع عنها ومكملة ومتممة لهذه الثمرة، فالأصل أن يكون القلب معلقاً بالله مخلصاً له -عز وجل- ثم تأتي بعد ذلك أعمال الجوارح من صلاة وصيام وزكاة وحج وقيام الليل وما إلى ذلك، فهذه العبادات المُتممة لن يقبلها الله إذا كان فيها رياء أو نفاق وعدم إخلاص لله -عز وجل-
فالقلب هو محل العلم والإخلاص والتدبر والتفكر، لذلك كان التفاضل عند الله -عز وجل- بين الناس على حسب ما وقر في القلب من إيمان.

يقول الحسن البصري (والله ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه من الإيمان) والمقصود أن سيدنا أبو بكر لم يسبق الصحابة منزلةً بكثرة صومهِ ولا صلاتهِ وإنما بما وقر في قلبه من الإيمان والإخلاص.
وعلى قدر ما في قلبك على قدر ما سيكون تَفاضُلك ورِفعة درجتك عند الله تعالى، قال تعالى {هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ}[سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ آية ١٦٣]

الله سبحانه وتعالى يَتعبدنا بالكيف لا بالكَم، قال تعالى {ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ} [سُورَةُ المُلۡكِ آية ٢] ولم يقل أكثرَ عملاً، فَمقياس ومعيار التفاضل عند الله بحُسن العمل والإخلاص والخشوع فيه.

أعمال القلوب تفضل على أعمال الجوارح من وجوه:

● اختلال عبادة القلب قد يهدم عبادة الجوارح؛ كالرياء مع العمل، كما ذكرنا أن يحج حتى يُقال أنه حَج.

● أعمال القلب هي الأساس، فما وقع من لفظ أو حركة بغير قصد القلب فلا مؤَاخذة عليها. مثل العبد الذي ضلت عنه راحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض صحراء، فاضطجع وقد يَئِسَ منها، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة على رأسه فلما رآها قال من شدة الفرح:
اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح؛ فلم يؤاخذه الله بما جرى علي لسانه وإنما ما وقر في قلبه؛ ومن لُطف الله بنا أنه لا يأخذنا بسبق الألسن، حتى أنه عز وجل لا يؤاخذ من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

● أنها سبب المراتب العالية في الجنة كالزهد.
● أنها أشق وأصعب من أعمال الجوارح، يقول ابن المُنكدر (كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت لي)
● أنها أجمل أثراً؛ كالحب في الله.

● أنها أعظم أجراً، قال أبو الدرداء (تفكر ساعة خير من قيام ليلة)

● أنها محركة للجوارح؛ فعندما يحب العبد العبادة فإنها تُحرك جوارحهُ للبذل في سبيل تلك العبادة.

● أنها تُعَظِّم أجر عبادة الجوارح أو تقلله أو تحبطه؛ كالخشوع في الصلاة؛ فمن يدخل خاشعاً في عبادتهِ لا يتساوي مع غيره ممن ينشغل ولا يخشع، فرُبَ مصلي ومصلٍي وبين صلاتهما مابين السماءِ والأرض.

● أنها قد تعوض عن عبادة الجوارح؛ كنيّة الصدقة مع عدم المال؛ فهناك من يُريد أن يتصدق ولا يملك المال، فتُكتب له بالنية الصادقة أنه تصدق.

- أن أجرها ليس له حدٌّ؛ كالصبر. {إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابࣲ} [سُورَةُ الزُّمَرِ آية ١٠]

- أن أجرها يستمر مع توقف الجوارح أو عجزها عن العمل؛ فمن يُصلي وهو جالس لعجزهِ أو مرضهِ يُكتب له الأجر لأن الله -عز وجل- يعلم نيته الصادقة وأنه لولا مرضهِ لصلي واقفاً.

- أنها تكون قبل عمل الجوارح و معها، ويكون بإخلاص النية قبل البدء في العبادات وكذلك أثناء القيام بها.

واقع الناس الآن تجاه العبادات القلبية

حين ننظر إلى الأُمة الآن وإلى واقعها، نجدها بعيدة عن تلك الفروض من الأعمال القلبية، بل وإن بعضهم لا يُحدث نفسه أصلاً ما إذا كان العمل خالصاً لوجه الله تعالى أم لا؛ قال تعالى، {وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ} [سُورَةُ المُؤۡمِنُونَ آية ٦٠]
فهؤلاء يُؤدون العبادات وقلوبهم تخشى ألا تُقبل تلك العبادات. فأين نحن من هؤلاء؟ كم مرة حدثنا أنفسنا وكنا خائفين خوفاً شديداً ألا يتقبل الله منا أعمالنا؟
يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان، (فواجبات القلوب أشد وجوبًا من واجبات الأبدان وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس بل هي من الفضائل والمستحبات؛ فتراه يتحرج من ترك فرض أو ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم منه من واجبات القلوب وأفرضهم، ويتحرج من فعل أدنى المحرمات، وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريمًا وأعظم إثمًا)

فبعض الناس يجد في قلبهِ تحرج من فعل المعصية، أو ترك فرض أو واجب من واجبات البدن، ولكن لا تجد في قلبه تحرج إن فعل الطاعة لغيرِ الله؛ كذلك لا تجد في قلبهِ تحرج من الكِبر والرياء المُصاحب لأعماله.

ومن آثار تلك الغفلة أن غالب الناس لا يستحضرون تقصيرهم في تلك الواجبات عند التوبة. يقول ابن تيمية: (وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المُتصفات بالفَاحشة أو مُقدماتها، أو بعض الظُّلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان، وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش)

علي سبيل المثال، نجد شخص يفعل فاحشة كالزنا -ولعياذُ بالله- ولكن في قلبهِ شدة خوفٍ من الناس أن يروه على هذه الفاحشة، ولكن لا تجد في قلبهِ أدنى خوفٍ من الله -عز وجل- وسبحان الله! فإن جريمة الزنا التي وقع فيها أخف من خوفهِ من البشر أكثر من خوفهِ من الله؛ فخوفهِ من البشر أكثر من الله يُعتبر شركاً، فَالزنا معصية قد يتوب العبد ويُخلص في توبتهِ، ويندم عليها فيغفر الله له؛ أما الشرك ذنباً أكبر، فلابد أن يفطن العبد لذلك.لهذا كان النبي ﷺ يقول (اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرك بك وأنا أعلم؛ وأستغفرك لما لا أعلم)

فقد يُشرك الإنسان وهو لا يعلم عند خوفه من ذي سلطة أكثر من خوفهِ من الله -عز وجل- أو من توكلهِ على غير الله وهذا شرك توكل لأنه توكل على عبدٍ مثله ونسي أن يسأل الله.
فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقًا أعظمًا نفعًا من ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية.

الدرس الثاني:

أهمية القلب:

الله -سبحانه وتعالى- لا يُريد من العبد إلا قلبه، وقد أدرك الشيطان دور القلب ومكانه فلم يضيّع وقته في معارك جانبية بل صوَّب جهده نحو هدف واحد وغاية ثابتة وهو القلب؛ الشيطان يعلم أنه إذا أفسد عليك قلبك فقد أفسد عليك كل شيء.

قال ابن القيّم: (ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق)

فلا يَكُف الشيطان من وساوس الشك وعدم اليقين بالدين؛ و يجعلك تلتفت إلى الدنيا وتميل إليها، وتسير كما يسير الناس، تفعل كما يفعلون هم من المعاصي مُردداً إن الله غفور رحيم، وتنسى أنه -عز وجل- شديد العقاب.
وقد يُحبط عملك بسبب هذا الذنب، أو يتأخر دخولك الجنة، أو تدخلها ولكن ليس في الدرجات العُلا؛ فلماذا نبيع الآخرة ونُفرط أو نرضى بالدون في أمر الآخرة؟

الشيطان يضع حوائل في طريق العبد كلما أراد السير إلى الله؛ فيجعل الدنيا تشده، أو يجعل صاحب يدعوه إلى المعاصي، وبذلك فإن الشيطان حتى وإن لم يظفر من العبد بشيء، عطله عن السير في طريق الله.
فالقلب هو الهدف المشترك بين الملك والشيطان، كلاهما يستهدفه، فهو موضع الصراع، والنقطة الملتهبة، وساحة القتال، وأرض المعركة، ونتيجة هذه المعركة:

إما هداية القلب وحياته، وإما قساوته وموته وهلاكه، فواعجباً ممن أخذ نصيحة العدو، وردّ وصية الحبيب، واشترى صداقة الشيطان بعداوة الملائكة وأعلن الحرب على ما تبقى من إيمانه بالتعاون مع عدوه اللدود، وهي صيحة التعجب التي سبق وأن أطلقها،ابن الجوزي حين قال: (كيف طابت نفسك أن تكون ظهيراً لفئة النفس على فئة القلب، وفئة القلب مؤمنة وفئة النفس كافرة؟!)

فالهدف المشترك بين الله الملك والشيطان هو القلب؛ الشيطان يُريد إفساد هذا القلب حتى لا يلتفت الإنسان إلى الطاعة ولا يجتهد فيها؛ فإما أن هذا القلب يهتدي ويعيش مع الله ويطمئن بذكر الله وطاعته، وإما قسوته و موته و هلاكه.

ويدور مع الدنيا، ويسير مع أصحاب المعاصي والذنوب، فلا يتأثر بطاعة ولا يندم على معصية؛ وبهذا فهو يساعد الشيطان ويستمع لنصائحه، ورد نصيحة النبي ﷺ الذي حذره من الشيطان، لأن النفس استولت على القلب فأصبح الإنسان بعيداً عن الله يتبع نفسه ومزاجه وهواه.

قال تعالى، {أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍۢ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةًۭ فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [سُورَةُ الجَاثِيَةِ آية ٢٣]فالقلب هو الملك، قال رسول: (ألاَ وإِنَّ في الجسدِ مُضْغَةً؛ إذا صلَحتْ صلَحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كلُّه، ألاَ وهْيَ الْقَلْبُ)

فيجب على الإنسان أن يُجاهد نفسه حتى يُطهر قلبه من الرياء والكِبر والغرور، فعندما يتحكم القلب في النفس، أصبح هو من يقودها فيُحجمها عن المعاصي؛ والعكس إن تحكمت النفس في القلب، فسوف تُصرفه عن الطاعة، ومن ثم يُجلب الشيطان على العبد الوساوس والشهوات، فَيفعل العبد الطاعة وفيها رياء أو نفاق فلا يتقبلها الله -عز وجل- منه

الأعمال القلبية والاهتمام بها:

وكما أدرك الشيطان حقيقة القلب وأهميته، يجب علينا نحن أن نفهم هذا ونجتهد في إصلاح هذا القلب، فَنبني في قلوبنا الإخلاص والورع والتقوى ومحبة الله -عز وجل-والناس في الاهتمام بالقيام بأعمال القلوب على درجات؛ يقول الله -عز وجل{ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌۭ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌۭ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ}[سُورَةُ فاطِرٍ آية ٣٢]

وهذه الثلاث هي درجات العباد في أعمال القلوب والجوارح؛ يقول ابن تيمية، (والناس فيها يعني أعمال القلوب على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان)

- ظالم لنفسه: وهو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور، ولا يجتهد في أعمال القلوب.
- مقتصد: المؤدي للواجبات التارك للمحرمات،لكن لا يستزيد في المستحبات
- سابق: المُتقرب بما يقدر عليه من فعل واجب ومُستحب والتارك للمحرم والمكروه.

إذاً علينا أن نجتهد في أعمال القلوب ونحذر الذنوب، قال تعالى، {وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ} [سُورَةُ الأَنۡعَامِ آية ١٢٠]،يأمرنا الله -عز وجل- بترك ظاهر المحرمات وباطنها من كِبر وغرور ورياء، فالكبر هو الذي أخرج إبليس من الجنة عندما قال {أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ} [سُورَةُ الأَعۡرَافِ آية ١٢] فأعمال القلوب قد تؤدي إلى سوء الخاتمة، وما تُكتب سوء خاتمة لإنسان إلا بسبب دسيسة من أمراض القلوب لم يكن يعرفها.

الدرس الثالث:

الخشوع:

قال الله عز وجل {أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ}[سُورَةُ الحَدِيدِ آية ١٦]
قال ابن مسعود رضي الله عنه، (مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عُوتِبْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ)عاتبهم الله -عز وجل- متى يأتي الأوان؟

متى هو الوقت الذي تخشع فيه القلوب لذكر الله وتتعلق القلوب فيه بالله -عز وجل-؟نسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا قلوبا خاشعة

قال ابن عباس رضي الله عنهما (إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن)

وقال تعالى، { قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ} {ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ} [سُورَةُ المُؤۡمِنُونَ: ١-٢]

سبحان الله! المؤمن يجد الخشوع ويجد قلبه في العبادة، قال تعالى،{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ} [سُورَةُ البَقَرَةِ آية ٤٥] لو أصبحت العبادة فيها خشوع لما أراد العبد أن ينتهي من العبادة، ولكن لماذا نزهد في العبادة؟ ولماذا تثقل علينا الصلاة؟لماذا تُصبح تلاوة القرآن ثقيلة على القلب؟

ـ لأن القلب لم يجد الخشوع بعد، فالخشوع لن يجده المرء إلا بعد مجاهدة.

لم يأتي الخشوع بحضور درس علم، أو قراءة جزء أو جزئين من القرآن وانتهى الأمر، ولا يأتي الخشوع في صلاة واحدة ثم نقر الصلوات الأُخري نقراً، بل يأتي الخشوع بمواصلة الطريق إلى الله -عز وجل- والاستمرار والمجاهدة.

كانت قرة عين النبي ﷺ في الصلاة، وكان يقول ﷺ (قم يا بلال فأرحنا بالصلاة) لكن الآن نُريد أن نُصلي هذا الفرض سريعاً،وكأننا نريد أن نتخلص منها لعدم وجود الخشوع، فقدنا الخشوع بسبب الذنوب والمعاصي التي انتشرت والركون إلى الدنيا؛ القلبك أصبح مُعلقاً بغير الله، بالمال والملابس وحب الظهور وغيره، وهذا يخطف الخشوع من قلبك خطفاً ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم.

✅ الخشوع، هو سكون القلب والذل والانكسار لله -عز وجل-
✅الخشوع، قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه؛ اجتمع القلب على ربه سبحانه وتعالى.
✅ الخشوع، هو الانقياد للحق

الخشوع المفقود وحال الأمة في هذا:

فلماذا لا نجد القلوب ذليلة خاضعة لله -عز وجل- ذلك بسبب الذنوب والمعاصي الكثيرة التي انتشرت الآن؛ نجد أن القلب ابتعد عن الخشوع وعن طريقه إلى الله كثيرا؛ وبسبب أن البركة نُزعت من حياتنا في أمور كثيرة جدا، منزوعة من الأوقات والأعمار ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم.

في زمن أجدادنُا لم يكن هناك تكنولوجيا حديثة، لكن كان هناك بركة في الوقت، لم يكن هناك غسالات ثياب مثلاً توفر الوقت والمجهود كزماننا هذا؛ لكنهم كانوا في صحة وعافية في أبدانهم، والآن توجد الغسالات والأجسام متعبة،لأنه كلما تقدم الزمن كلما نُزعت البركة بسبب الذنوب والمعاصي.

لذا لا تقارن حالك الآن بحال السلف، أو طاعتك وطاعة السلف، فَتَتحسر وتترك الطاعة. فلن تصل لهذا الأمر إلا بعد مجاهدة سنوات وسنوات كما كان حال السلف.
كما كان يُقال عن الإمام أحمد ما صَاحبتُ الإمام أحمد منذ عشرين سنة إلا وهو في زيادة، وليس العكس، يزيد ولا ينقص لأنه يزيد في العبادة والعمل
فمتى يجد القلب الخشوع؟ ومتى نجد قلوبنا مستقرة مع تلاوة كلام الله وتبكي من خشية الله؟

أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا وإياكم الخشوع يارب. المشكلة أننا لا نجاهد ولا نستمر في المجاهدة؛ لا بد أن نضع أيدينا على الجُرح حتى نستطيع أن نُعالج هذا الأمر؛ حتى يصل القلب إلى حالة الخشوع، حتى لا يتعلق القلب بغير الله -عز وجل-

كيف نجاهد للحصول على الخشوع:

أسأل الله-عز وجل- أن يرزقك الخشوع والبركة في الوقت، وأن يفتح عليك بالخشوع وأن يجعل هذا همك، قال تعالى،{ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ } [سُورَةُ الحِجْرِ آية ٩٩]، صاحب الصالحين الذين يجعلون قلبك مُعلقا بالله، لا تنشغل بعيوب الناس وتنسى عيوبك، عليك أن تستمر في المجاهدة ولا تيأس، فإن جاء الموت فنحن نسير في طريقنا إلى الله -عز وجل- فليس الهدف أن نصل أو لا نصل.

الهدف هو المجاهدة والاستمرار، فإذا لقيت الله -عز وجل- لن يحاسبك إلا على جِهادك، الخشوع وطمأنينة القلب رزق من الله -عز وجل- كما أن الدعوة رزق وفتح الله -عز وجل- على عبده في العلم والدعوة رزق من الله -عز وجل-فلا بد من المجاهدة، قبل الصلاة ذكر نفسك قد تكون هذه آخر صلاة بين يدي ربي؛ وأسأل الله الخشوع فيها، وأثناء الصلاة تذكر الآيات والأدعية التي تجعل قلبك خاشعاً، ثم إذا انتهت من الصلاة اسأل نفسك هل كان القلب خاشعاً؟ فلابد أن يكون قلبي خاشعاً، وإلا فسوف نحاول في الصلاة التي تليها وهكذا.

كيف يصل القلب إلى الله؟ هل وجدت قلبي مع آيات الله حين قرأتها؟ إن وجدت آية حركت قلبك كررها حتى يَمُن الله عليك بالبكاء من خشيتِهِ وحتى أجد قلبي معه سبحانه وتعالى؛ فإن وجد العبد قلبه مع الله شعر بلذة الخشوع، بَكى وتضرع من هذه الخشية، فأراح قلبهُ واطمأنت نفسه.
الخشوع يتطلب تنظيم الوقت أيضاً، فلا تجعل لعبادَاتك ما تبقى من وقتك، بل اجعل وقت مُخصص للعبادة، ولا تضيعه باللهو والانشغال بأمور الدنيا الزائلة، فإذا خصصت وقتاً لقيام الليل أو قراءة ورداً من القرآن، فأنت

بـذلك تجعـل قلبـك وجوارحـك مُهيئـة ومسـتعدة لهـذا الوقـت مـن العبـادة؛ و بالاسـتمرار والمجاهـدة سـتجد قلبـك يـرق بـل وينتظـر هـذا الوقـت وسـيفتح الله عليك بالخشوع.

مهمـا كانـت مشـاغلك وهمومـك فسـوف تُحـل بـإذن الله تعـالى وسـتجد فقـط أنـك ضـيعت وقتـك انشـغالاً بهـذه الهمـوم والمشـاكل؛ فـدع الأمـر لله واجتهـد للتركيـز فـي عباداتـك، دَبـر ألا تُـدبر، وتـذكر الموقـف العظـيم وانتظـار الحسـاب خمسـين ألف سنة لا تأكلون ولا تشربون.

قـال تعـالى، {وَإِنَّ يَوۡمًـا عِنـدَ رَبِّـكَ كَـأَلۡفِ سَـنَةٖ مِّمَّـا تَعُـدُّونَ }[سُـورَةُ الحَـجِّ آيـة ٤٧]

فهـل هنـاك مـا يسـتحق أن ننشـغل بـه مـن هـذا المشـهد العظـيم. يقـول بعـض السـلف: إن مـن وقـوف العبـد فـي الصـلاة والخشـوع فيهـا مـا يُخفـف عنـه عـذاب هذا الموقف يوم القيامة.

الدرس الرابع:

طهارة القلب شرط لدخول الجنة:

تحـدثتُ فـي الـدرس الماضـي عـن ضـرورة المجاهـدة للوصـول إلـى القلـب الخاشـع؛ قـال تعـالى {وَٱعۡبُـدۡ رَبَّـكَ حَتَّـىٰ يَأۡتِيَـكَ ٱلۡيَقِينُ} [الحجـر آيـة ٩٩] حتـى يأتينــا المــوت، فــنحن مــا خُلقنــا إلا لعبــادة الله -عــز وجــل- قــال تعــالى، {وَمَـا خَلَقۡـتُ ٱلۡجِـنَّ وَٱلۡإِنـسَ إلا لِيَعۡبُـدُونِ} [الـذاريات آيـة ٥٦] الله -عـز وجـل- لا يُريـد منك إلا قلبك.

قـال أحـد السـلف جاهـدتُ فـي قيـام الليـل عشـرين سـنة حتـى اسـتمتعت بهـا عشـرين، وآخـر يقـول جاهـدتُ بقيـام الليـل عشـرين سـنة واسـتمتعت بهـا عشـرين سـنة؛فلابد مـن المجاهـدة وعـدم اليـأس، فقـد تمـر علـى الإنسـان أحـوال وأوقـات يظـن فيهـا أنـه لـن يُـرزق القلـب الخاشـع؛ فيجـب ألا نيـأس ونطـرق الباب كثيراً؛ وأن نسأل الله -عز وجل- دائماً أن يرزقنا قلباً خاشعاً.

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا) صحيح مسلم

الإيمان له طعم لابد أن تُجاهد حتى تصل إليه، وكما قال شيخ الإسلام بن تيمية (إنّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، قالوا: وما هي؟ قال: إنها جنة الأنس بالله ومحبته)

فقد تظل طيلة عمرك تؤدي صلاة بلا روح، وقُرآن بلا تدبر، وذِكر بلا طمأنينة، كالذي معه مِفتاح ولكن يضعه في الباب الخطأ فلن يُفتح له الباب أبداً، هكذا نحن إذا أدينا العبادات بلا خشوع فلن ننال لذة وحلاوة الإيمان والخشوع؛وسيفنى العُمر ولن نصل إلى حقيقة العبودية ولذتها.

أيضاً تحدثتُ عن أهمية القلب وأنه الملك، قال رسول ﷺ (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). متفق عليه،الله يريد قلبك، والشيطان يريد أن يُفسد عليك هذا القلب.

طهارة القلب شرط لدخول الجنة:

يقول الله -عز وجل- {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيْمٌ} [المائدة من الآية ٤١]، والآية دليل دامغ على أن من لم يُطهِّر قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولهذا حرَّم الله سبحانه الجنة على من كان في قلبه مثقال ذرة من خبث.

قال صلى ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) صحيح الترمذي.

وإذا وجد إنسان موحد وفي قلبه شيء من كِبر، قال بعض أهل العلم يظل في النار حتى يخرج من قلبه كل ذرةٍ من كبر ثم يدخل بعدها الجنة -يارب

سَلِم- وإذا كنا لا نطيق نار الدنيا دقائق فكيف سَيطيق العبد المُتكبر المكث في النار كي يتطهر قلبه حتى يدخل الجنة.

وقد ذكرت في شرح اسم الله القدوس أن الله -عز وجل- باسمه القدوس يأبى أن يدخل الجنة إلا من كان متطهراً؛ قال تعالى {وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ} [الزمر آية ٧٣] فلا يدخلها أحد إلا بعد كمال طيبه وطهره، لأنها دار الطيبين، ولذا يُقال لهم وهم على مشارف الجنة، {طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}

يُبشَّرون عند موتهم دون غيرهم على لسان الملائكة:{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجنَّةَ بِمَا كُنْتمْ تَعْمَلُونَ} [النحل آية ٣٢]

قال ابن القيِّم: (فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا مَن فيه شيء من الخبث، فمن تطهَّر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوّق، ومن لم يتطهر في الدنيا؛ فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة)

من أجل ذلك جاء الأمر جازماً للنبي :{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر آية ٤] قال ابن القيِّم: (وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ها هنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق).

إذا طهارة القلب شرط لدخول الجنة، فمن تطهر في الدنيا دخل الجنة دون معوق؛ ومن لم يتطهر في الدنيا وكانت نجاسته عينية، كالكافر لأنه مشرك بالله فلن يدخل الجنة {إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ} [سُورَةُ التَّوۡبَةِ آية ٢٨]

والمؤمن لا ينجس فهو في أصله طاهر، لكن قد تعتريه نجاسة بسبب ذنوب أو معاصي فلا يدخلها حتى يتطهر منها. أهل الإيمان إذا جاوزوا الصراط وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف الله المستعان، حبسوا على قنطرة

بين الجنة والنار حتى يُهذبوا ويُنقوا من بقايا بقيت من خُبث أو كِبر أو حسد لم تُدخلهم النار ولكن أيضاً منعتهم من دخول الجنة حتى يتطهروا ثم بعد ذلك يُؤذن لهم لدخول الجنة.

قال الله تعالى، {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ} [التوبة آية ٩]، فعبَّر سبحانه وتعالى عن نجاستهم بالمصدر للمبالغة؛ وكأنهم عين النجاسة لأن خبائث الباطن أولى بالاجتناب؛ فإن خبائث القلب مع خبثها في الحال مهلكات في المآل، لأن المقصود بالنجاسة في الآية هي نجاسة القلب، وهناك معنى آخر: هو أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظاهر، فالمُشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس القلب.

وهذا الذي ذهب إليه أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات لأن الله سبحانه أحلّ طعامهم، وثبت عن النبي: في ذلك من فعله وقوله، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده.

وإضافة إلى هذا؛ فالنَجاسات المعنوية ليست على درجة واحدة بل تتفاوت، وليس محلها قلوب الكفار فحسب، بل قد توجد في قلوب المسلمين، فالغضب والكبر والحسد وغيرها من أمراض القلوب نجاسة.

قال رسول الله: (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة).
وتأمل أبا حامد الغزالي هذا الحديث تأملاً قد يكون بعيداً عن الظاهر لكنه ذو دلالة فقال: (والقلب بيت هو منزل الملائكة، ومهبط أثرهم، ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة،{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ} [سُورَةُ الشُّورَىٰ آيه ٥١]، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيباً، ولا يُعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيباً طاهرًا)

والشاهد أن طهارة القلب شرط لدخول الجنة، فإن لم يُطهر العبد قلبه في الدنيا فسوف يكون هناك خزيٌ في الدنيا وعذابٌ شديد في الآخرة. نسأل الله -عز وجل- أن يُطهر قلوبنا حتى نكون ممن قالت لهم الملائكة {طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ}

الدرس الخامس:

هذه السلسلة مقسمة إلى الحديث عن أهمية القلب ثم الأعمال القلبية؛ تلك الفريضة الغائبة التي لا يحرص عليها ولا على تَعَهُّد القلوب الكثيرين؛ كذلك الحديث عن مواعظ ودوائها. نسأل الله-عز وجل- أن يفتح علينا.

*** في هذا اللقاء سوف أُعلق على:**

حديث النبي: " إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُمْ، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ " رواه مسلم

قول الله تعالى: {يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ(٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ(٨٩)} [سورة الأعراف]

قال رسول : " إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُمْ، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ " رواه مسلم

- بَينَ رسول الله، أن القلب موضع نظر الرَب، فلا عِبرة إذاً بحُسن الظاهر مع خبث الباطن، فأعجب ممن يعتني بمظهرهِ وهِندامه الذي هو محل نظر الخلق، فَيُنظف ملابسه ويُزينُها ويُعطر ثوبه بما أمكن له حتى لا يطلع مخلوق على عيب فيه؛ ولا يهتم بقلبهِ الذي هو مَحِل نظر الخالق، سبحان الله!

فَيُطَهِر ويُزينه لِئلا يطلع رَبَهُ منه على أي دنس أو خبث. فكيف يحرص المرء على تطهير ظاهرهُ ويترك الباطن؟!

- هناك معنى آخر لهذا الحديث قاله ابن الجزري: (النظر هَاهُنا الإختيار والرحمة والعطف لأن النظر في الشاهد دليل المحبة؛ وترك النظر دليل البغض والكراهية) والمعنى هنا لحديث النبي، "إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ " طبقاً لكلام ابن الجزري، أن النظر هنا

اختيار من الله سبحانه وتعالى للعبد فيرحمه ويعطف عليه وهذا دليل على محبة الله -عز وجل- للعبد.

● كذلك يقول الله -عز وجل- {لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ} [سورة البقرة آية ٢٢٥]

إذاً فإن للقلب كسباً ككسب الجوارح وعملاً كعملها،والله -سبحانه وتعالى- أعلن أنه يأخذ على كسب القلب ثواباً وعقاباً. الله -عز وجل- يؤاخذ القلب على ما كسب وما يفعل، ويشهد على ذلك

● حديث رسول الله : " إذا التقى المسلمانِ بسيفَيْهما فالقاتل والمقتول في النار" قلت: يا رسول الله هذا القاتِل فما بالُ المقتول؟ قال: "إنّه كان حريصًا على قتل صاحبه" صحيح مسلم. هو لم يقتل ولكنه كان بقلبه حريصاً على قتل صاحبه، فهذا المقتول أيضاً في النار؛ وقد وضحت ذلك من قبل في أهمية عمل القلب، فدخل هذا المُسلم النار بشيءٍ وَقَرَ في قلبه، و هَلَكَ بعملٍ قلبيٍ ليس غير، سبحان الله!

المنافقون نطقوا بالشهادتين فَعُصِمت بذلك دمائهم في الدنيا؛ ولكن في النهاية استقروا في الدرك الأسفل من النار بما حَوَت. قلوبهم. يقول الله تعالى،{قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي} [سورة آل عمران آية ٣١]

وهذا ارتباط الظاهر بالباطن، لأن حب الله في القلب يُورِث اتباع الجوارح، لأن الجوارح تتبع القلب. فإذا تمكن حُب الله -عز وجل- في قلب العبد، لا بد أن تتبعه اليدين والرجلين والجوارح كلها وإلا كان إدعاء كذب وزور. كذلك من محبة الله -عز وجل- اتباع رسولِهِ -صلى الله عليه وسلم- إذاً فبما أن القلب محل نظر الله -عز وجل- فوجبَ علينا أن نُطهره من كل دنس أو خبث حتى يَصلُح إلى أن ينظر الله -عز وجل- إليه.

قول الله تعالى: {يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ(٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ(٨٩)} [سورة الأعراف]

● فلا القول ينفع ولا العمل ينفع بل سلامة القلب هي أصل كل نجاة؛ كما أن فساد القلب هو أصل كل بلية، فما هو القلب السليم إذاً؟

القلب السليم هو الذي سلم من كل شئ إلا من عبوديته لربه وطاعته له.

قال -شيخ الإسلام- ابن تيمية: (فالقلب السَّليم المحمود، هو الذي يُريدُ الخير لا الشَّر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشَّر، فأمَّا من لا يعرف الشَّر، فذاك نقص فيه لا يُمدح به)

فالقلب السليم هو من يعرف الخير من الشر وإن لم يستطع فإن هذا نقصٌ فيه لا يُمدح الإنسان بهذا القلب، فالقلب إن استطاع أن يعرف الخير من الشر استطاع بذلك نفع الآخرين؛ وكان سليماً في علاقتهِ بربه، مُخلصاً لله لا يفعل العبادات رياءًا، وسليماً في علاقتهِ بالبشر فلا يحمل لهم غِلاً ولا حقداً ولا كراهيةً في قلبه.

● تأملي كيف جعل الله -عز وجل- المال والبنون بمعنى الغِنى؛ كأن المعنى، يوم لا ينفع أحداً غِناه إلا غِني من أتى اللهَ بقلبٍ سليم. لأن غنى الرَجُل الحقيقي هو غنى الدين بسلامة القلب؛ كما أن غناه في دُنياه بمالهِ وولدهِ.

*كذلك عرّف ابن القيم القلب السليم بقوله:
(والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم فى جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص، وهذه الخمسة حُجب عن الله)

إذاً القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل الآفات التي تُبعده عن الله.

وسَلِمَ من كل شهوة تُعارض أمر الله -عز وجل- وخبره الذي أخبر به، كذلك سَلِمَ من كل إرادة تُزاحم مراد الله، فلا يوجد في قلبه إرادة غير مرضاة الله -عز وجل- عنه؛ وسَلِمَ من كل قاطع يقطعه عن الله -عز وجل- فهذا القلب السليم في جنة مُعجلة في الدنيا لقربه من مولاه الله -عز وجل- وفي جنة في البرزخ في قبره، وفي جنة يوم القيامة.

ولا تأتي له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: شِرك مُناقض للتوحِيد، وبدعة تُخالف السُنة، شهوة تُخالف أمر الله -عز وجل- فالله يأمر بالعفاف والابتعاد عن الزِنا مثلاً والقلب السليم يفعل ما يأمره الله به ويجتنب ما نهى

عنه، وغفلة تناقض الذكر لأنه في ذكر دائم، وهوى يناقض التجريد والإخلاص، بذلك هو أصبح مخلصاً متجرداً لله من هؤلاء الخمسة (الشرك، بدعة، شهوة، غفلة، هوي).

- أيضاً يقول الله -عز وجل- في سورة ق:

{هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)}.وكأن المعنى الذي يُريد أن يوصله لك ربك،ائتني بقلبٍ سليمٍ مُنيبٍ تنجو من عذابي وتنال مُرادي ورضائي؛ فأنت يا عبد من تستطيع فعل ذلك وليس احدٌ غيرك، فأتِ لي بقلبٍ مُخلصٍ مُقبلٍ حتى تنال رضاي.

- تأمل كذلك قوله تعالى في سورة الشعراء:

{إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [٨٩]
وقد علمنا صفات القلب السليم الذي يخلو من الشِرك والبدعة والشهوة والغفلة والهوى.

•وفي المقابل قد يدخل العبد النار بسبب القلب، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا} [سورة الأعراف آية ١٧٩]
بل إن حال العبد في ،قبرهِ ما هو إلا انعكاس لحال قلبه في الدنيا كما ذكرت لك كلام ابن القيم حيث قال (إن القلب السليم في جنة مُعجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد)

كما قرَّر ذلك ابن القيم وهو يزيدنا في كتابه زاد المعاد :
" فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيما وعذابا وسجنا وانطلاقا "
يجب أن يعلم العبد إن كلما كان قلبه سليماً مُطمئناً خاشعاً مُنيباً مُخلصاً مُقبلاً على الله؛ كلما كان هذا قلبه في الجنة المُجلة في الدنيا والبرزخ ويوم المعاد.

الدرس السادس:

📌أهمية القلب أيضاً، لأن القلب هو بيت الإيمان والتقوى، فإذا نُزعت التقوى والأمانة تُنزع من القلب أولاً.

قال رسول الله :(التقوى هاهنا) فعلامة التقوى حقيقةً في القلب.

قال حذيفة بن اليمان -رضى الله عنه- حَدَّثَنَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حَدِيثَيْنِ، رَأَيْتُ أحَدَهُما وأَنَا أنْتَظِرُ الآخَرَ: "حَدَّثَنَا: أنَّ الأمَانَةَ نَزَلَتْ في جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ وحَدَّثَنَا عن رَفْعِهَا قالَ: يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ مِن قَلْبِهِ"

والمقصود بالأمانة في هذا الحديث هي ما جاء في قول الله -عز وجل- {إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا} [سورة الأحزاب آية ٧٢] وهي عين الإيمان. لله -عز وجل- استخلف الإنسان وجعله خليفتهُ على أرضه، ليُعمر هذا الكون بالإيمان والطاعة.

أخبرنا الرسول في هذا الحديث أن الإيمان أول ما نَزَلَ، نزل في القلب، وهذه هي الفطرة السليمة التى يُولد بها العبد؛ ثم يزيد الإيمان بعد ذلك بتعلم القرآن والسُنة والإقبال على الله والعلم والعمل بهما.

إذا تمكنت الأمانة من قلب العبد، قام بأداء ما أُمِرَ به، واجتنب ما نُهي عنه بكل طواعية وتسليم، ومن هنا تَكمُن أهمية الأمانة.

أشار النبي في الجزء الثاني من الحديث إلى أن الإيمان يُنزع أول ما يُنزع كذلك من القلب. إذاً أهمية القلب. فإذا نُزعت الأمانة من قلب العبد فكيف سَيُؤدي عِبادَتَهُ؟ سوف تكون صلاته بلا خشوع، وقراءتهُ القران ليس فيها تدبر ولا بُكاء من خشية الله، ولم يُرزق العبد الطمأنينة بذكر الله، ولا يصل إلى هذه الدرجات العالية، لماذا؟

لأن كل هذا يحتاج إلى قلبٍ خاشع، وكأن معك مِفتاح ولكنك تَضعهُ في غير مَوضِعهُ فلا يفتح لك الأبواب، فأنت تحاول الخشوع في الصلاة وتدبر القرآن والاطمئنان بذكر الله ولا تستطيع كل هذا بدون قلباً سليماً خاشعاً. فلا بد من سؤال الله -عز وجل- القلب السليم الخاشع، ونعوذ بهِ سبحانه من قسوة قلوبنا. اللهم ازل قسوة قلوبنا يارب العالمين.

فـإذا قُـبِضَ الإيمـان مـن قلـب العبـد، فسـوف يعـيش عمـره كلـه ولـم يتـذوق لـذة الطاعـة وحـلاوة الإيمـان والأُنـس بـالله -عـز وجـل- فالقلـب هـو المفتـاح والسـبيل الوحيـد للوصـول إلـى صـلاة خاشـعة وإلـى تـدبر وأُنـس بـالله ولـذة الطاعـة. فقـد يسـلك المـرء كـل السُـبُل للوصـول إلـى غايتـه ولكنـه يُضـل، لأنـه لـم يَسـلُك الطريـق الصـحيح، فهـو بـذلك يُجاهـد ولكنهـا مُجاهـدة خاطئـة كمـا ذكـرت قبـل ذلك في شرح منزلة المجاهدين.

فالقلب هو السبيل الوحيد للوصول إلى الخشوع والتدبر ولذة الطاعة.

فـانظر إلـى أهميـة القلـب، الـذي هـو أول شـيء تنـزل فيـه الأمانـة وأول شـئ تُنـزع منـه، فمـن القلـب الزيـادة ومنـه النُقصـان، لـذلك يجـب علينـا أن نجاهـد للوصـول إلـى القلـب الخاشـع؛ ومـن نُـزِعَ الإيمـان مـن قلبـه يعـيش مُتخبطـاً ذو قاسـي لا يجـد لـذة الطاعـة ولا حـلاوة الإيمـان؛ لـذا تجـد الإنسـان يتـرك والعلـم وقيام الليل لأنه لم يجد الأُنس بالله -عز وجل-

وكمـا ذكـرت مـن قبـل، نحـن لا نُصـلى مـن أجـل اللـذة؛ ولكـن الله يَمُـنّ بهـذه اللـذة علـى مـن يشـاء مـن عبـادهِ بكثـرة جهـادهِ ولـينَ قلبـهِ؛ فـلا تجعـل الشـيطان يـدخل إلـى قلبـك فـإن لـم تجـد اللـذة تركـت العبـادة؛ بـل علينـا أن نُجاهـد حتـى نصـل؛ فمـن القلـب الزيـادة ومنـه النقصـان، وفيـه نشـأة الخيـر ومولـد الشـر، ولـو لـم يكـن للقلب من فضل إلا أنه وعاء الإيمان لكفاه وفضل عليه.

فَكفـي بالقلـب فضـلاً أنـه وعـاء الإيمـان، وهـذا فضـلٌ عظـيم، فيجـب علينـا الحـرص علـى صـلاح قلوبنـا بسـؤال الله الخشـوع، وأن نسـأله -عـز وجـل- أن يرزقنـا القلـب السـليم، وأن يُطهـر قلوبنـا مـن كـل مـا لا يُرضـيه عنـا، قـال تعالى{أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ} [سورة المائدة آية ٤١]

كـذلك القلـب هـو وعـاء التقـوى، وقـد قـال النبـي ﷺ "التقـوى هـا هنـا" وأشـار إلـى صـدره، علامـة علـى أن مكـان التقـوى هـو القلـب، فليسـت التقـوى بـأن أتحـدث بخشـوع أو دمعـة تَسـقُط أو إطالـة سـجدة أو غيـر ذلـك، إنمـا التقـوى هـي سـر قلبـي مُسـتودع فـي القلـب لا يطلـع عليـه أحـد إلا الله؛ فكلمـا ازداد العبـد فـي الطاعـة كلمـا زادت خشـيته وإقبالـه علـى الله -عـز وجـل- وازدادت تقـواه لله -عـز وجـل- فكـم نحـن مُقصـرين فـي الطاعـة وفـي سـؤال الله أن يرزقنـا قلوبـاً

خاشعة؛ نؤدي جميع العبادات بلا قلب وبلا روح؛ نقرأ القرآن بلا تدبر، والله -عز وجل- لا يُريد منك إلا قلبك.

أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا قلوباً خاشعةً مُنيبةً. اللهم يا مُقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك. اللهم يا مُصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك. اللهم أذهب عنا قسوة القلوب، وأذقنا لذة الطاعة وحلاوة الإيمان.

أسأل الله -عز وجل- أن يجعل هذه الكلمات في ميزان حسنات آباءنا وأمهاتنا؛ وأن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يجمعنا بهم في الفردوس الأعلى من الجنة دون سابقة عذاب ولا حساب.

الدرس السابع:

امراض القلب:

أقوال ابن القيم في ذلك.

أصعب أمر على الإنسان ألا يعرف مرضه، كأن يكون مريضاً بالكبر أو بالعجب أو بالغرور وهو لا يعرف؛ أو أن يكون عنده شرك خفي وهو لا يعرف.

كان رسول ﷺ يقول (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم؛ وأستغفرك لما لا أعلم)

دائماً نسأل الله -عز وجل- أن يُجنبنا جميع أنواع الشرك صغيره وكبيره؛ ونعوذ بك أن نُشرك بك ونحن نعلم ونستغفرك لما لا نعلم. فقد يقع الإنسان في شرك خفي، أو في كِبر أو عُجب أو غرور وهو لا يعرف مرضه، وأصعب من المرض عدم معرفة المرض، والأصعب من كل ذلك أن يرفض الإستماع إلى وصية الطبيب أو أن يقتنع بمرضه؛ وهذه ثلاثة تجتمع في أمراض القلوب. خطورة أمراض القلوب أنها خبيثة تَتسلل إلى الإنسان دون أن يشعر.

لذلك على الإنسان أن يسأل الله دوماً أن يُطهر قلبه من كل مالا يرضاه عنه. نسأل الله -عز وجل- أن يُطهر قلوبنا من النفاق والكبر والعجب والغرور؛ ونسألك اللهم الرضا بالعمل والسكون والدعة، ونعوذ بك من إلف المعصية وعدم الندم على المعاصي والذنوب. اللهم طهر قلوبنا من كل مالا يرضيك عنا يارب.

يقول ابن القيم: (وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته؛ وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ)

سبحان الله! فقد يعرف بالأمر القبيح ولا يتألم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإذا كان القلب حي فأي شئ قبيح يُؤلمه من نفاق وكبر وعجب ورياء وشهوه؛يتألم القلب لعدم استعداده للآخره، وعدم إنشغاله بأمر الله والعمل به، لكن سبحان الله! هذا إذا كان القلب الحي، فإذا ورد عليه قبيح يتألم ويقول الحمد لله على العافية، يقول اللهم اصرفني عن هذا القبيح يارب.

مما يجعل مرض القلب أخطر من مرض البدن، مرض القلب عذابه لا ينقطع بموته؛أما مرض البدن فالعبد يرتاح منه بوفاته؛ فإن كان القلب حيٌ في الدنيا كانت حياته في البرزخ بحسب حياته في الدنيا، فمن عاش على سماع وتلاوة القرآن ستكون هذه هكذا حياته في قبرِهِ. أما الإنسان الذي قلبه مريض غير حي سيكون في قبره بهذا القلب الميت ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من هنا كان الاهتمام بأمراض القلوب أوجب، والسعي لعلاجها أدعى، لأن الإنسان يكون بهذا القلب في قبرِهِ، فعلى العبد أن يتخلص من كل أمراض القلوب، يتخلص من الكبر والعجب والحسد والنفاق والضغينة، من حب الدنيا والسعي وراءها، من الرضا بالدون وعدم الاهتمام بأمر الآخرة، يجب أن يتوب الإنسان من كل أمراض القلوب.

فإن كل ما يُصيب البدن من أسقام في الدنيا، يؤجر عليه العبد إذا صبر؛ أما ما يُصيب القلب من أمراض، فهو الإثم والهلاك كله في الحياة وبعد الممات؛ فكما

أوضحت فإن كان قلب الإنسان القلب غير حي في الدنيا فسوف يكون هكذا في القبر.

إنك إذا دخلت معركة فقتلك العدو الظاهر وسلبك حياتك لمت شهيدًا، أما إذا غلبك العدو الباطن بأسلحة الشهوات والشُبهات لمت حينئذٍ طريدًا، وشتان عند الله ما بين شهيد و طريد، شتان شتان. إنك إذا دخلت معركة فقتلت العدو الظاهر وسلبك حياتك فإنك مت شهيدا

فالذي يُقاتل في سبيل الله ويفقد حياته يموت شهيداً، لأنه كان يُدافع عن دينه وحياته، وهنا غلبه العدو الظاهر، أما لو غلبه العدو الباطن وهو القلب والنفس والشهوات والشُبهات لمات حينئذٍ طريداً وحيداً وسيكون بهذا القلب المريض في قبره، وأعظم انتصار للإنسان أن ينتصر على نفسه، أما إن خسر معركته وغَلبته شهوته ونفسه الأمارة بالسوء والدنيا والشيطان؛ فإنه سيموت طريداً وحيداً لأنه مات بهذا القلب الميت المريض الذي سيكون معه في القبر.

يقول ابن القيم: (ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك ، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة ، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته)

تخيل شخص مريض يُألمهُ من يلمسه أو يُحركه، فهو لا يطيق، يتعب بسرعه من أدنى حركة، وكذلك القلب إذا كان فيه شيءٍ من الشهوة أو الشُبهة آذاه ذلك فهو لا يستطيع دفعها،؛ لكن إذا دخلت هذه الآفات على قلب صحيح سليم وقوي، فهذا لا يبعده عن دينه.

فَمريض القلب أي نفخة هواء أو هبة تُراب تُصيبه في مقتل، أي زلة عابرة تَفتنهُ وتقتله، أي فخ من الشيطان يسقط فيه صاحب القلب المريض، وأسهل مكيدة للعدو يقع فيها، وذلك لضعف قلبه وإنهيار أجهزة المناعة لديه.

الدرس الثامن:

سنتحدث في هذا الدرس عن أهمية القلب من خلال تدبر قوله تعالى:

{مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ} [سُورَةُ الحَجِّ آية ١٥]

فـإن القلـب عليـه مـدار الفـرح والسـرور، وإن القلـب الحـزين لـن تسـتطيع أي قوة على وجه الأرض أن تُغير ما بهِ من حزن.

◈ هذه الآيـة تَصـف حـال نفر مـن المنـافقين، امـتلأت قلـوبهم غيظـاً مـن رسـول الله ﷺ ومـن عُلُـوِهِ وانتصـاره علـيهم، فـالله -عـز وجـل- لابـد أن ينصـر رسـوله بلا شك.

فمـن كـان يظـن ويَغيظـهُ مـن حاسـدي وأعـداء النبـي ﷺ أن الله لـن ينصـره؛ فليَسـتفرغ جهده فـي إزالـة مـا فـي قلبـه مـن غيـظ وغـم وهـم؛ وليفعـل أقصـى مـا يستطيع فعلـه، حتـى وإن مد حبلٍ إلـى سـقف بيتـهِ وشـنق بـه نفسـهِ؛ فـإن هـذا لـن يشـفي ولا يُـذهب غـيظ صـدره. الله -عـز وجـل- وحـده هـو شـافي الصـدور ورافع وحر القلوب.

♦الشاهد من الآية:

أن القلـب إذا امـتلأ حَـزن وغـيظ وهـم، فلـن تسـتطيع قـوى الأرض أن تزيـل مثقـال ذرة ممـا بـه؛ إلا أن يشـاء الله وحـدهُ، فهـو القـادر علـى إزالـة مـا فـي هـذا القلـب مـن حَـزنٍ و غـيظ. الله -عـز وجـل- هـو مـن يملـك دواء القلـوب، وهـو شافي مافي الصدور.

فـلا تسـتطيع قـوى الأرض تُغييـر مـا فـي القلـب مـن هـم وحَـزن إذا كـان هـذا القلـب بعيـداً عـن الله -عـز وجـل- فلـن يُزيـل مـا فـي هـذا القلـب مـن يـأس وجـزع وكآبة غير الرجوع إلى الله-عز وجل-

إذا حِيـزت للإنسـان الـدنيا بحـذافيرها، وصـارت الـدنيا تحـت قدميـه، وصـار ملـك الملـوك، ثـم أُبتلـي بمـرض مُعين، امـتلأ قلبـه كمـداً وغيظـاً وغَمـاً، فلـن يهنـأ بشـيءٍ مـن الـدنيا؛ لأن قلبـه حـزين مهمـوم، والقلـب سـيد ومالـك فكيـف يهنـأ بـدنياه وهو على هذه الحالة من الضيق والحَزن؟

كـذلك إذا غَـرق القلـب فـي الشَـك والشُـبهات و الزيـغ والريـب، فـلا يسـتطيع أحـد نَـزع مـا فـي هـذا الصـدر مـن المـرض، إلا إذا وُفِـقَ هـذا القلـب بـالرجوع إلـى

الله -عـز وجـل- بالتوبـة والاسـتقامة؛ ويـتخلص مـن هـذه الشـبهات و الزيـغ والريب بحول الله -عز وجل- وقوته.

إذا رأيـت نعـيم الـدنيا مُقـبلاً علـى النـاس ومُعرضـاً عنـك؛ فَمَـدَدت عينـك حسـداً وامـتلأ قلبـك غِـلاً ولفظ لسـانك حَقـداً؛ فـلا يملـك تطهيـرك ممـا أنـت فيـه غيـر الله -عـز وجـل إذا أحـب قلبـك شـهوة وأُشـربها، ومـال إلـى خطيئـة وعشـقها، فـلا يملـك أن يُعَـدل قلبـك المنكـوس، ويُحيـي فطرتـك السـليمة أحـداً سِـوي الله -عـز وجل-

كـذلك إذا كَـرِهَ قلبـك طاعـة واسـتَثقلها، ومـلَ المداومـة عليهـا حتـى كـاد أن ينقطـع، فلـن يُحَبِبُـك فيهـا ويُقَرِبُـك منهـا سِـوى الله -عـز وجـل- فهـو الـذي حبـب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا.

إذا حَـزِن القلـب، لا يسـتطيع أحـد أن يسـعده سـوي الله -عـز وجـل- وهـذا مـا أدركـه مُطَـرف بـن عبـدالله حـين انخلـع مـن رؤيـة عملـه، واعتـرف بقمـة عجـزه وغايـة ضـعفه؛ ورد الفضـل كـل الفضـل إلـى الله وحـده حـين قـال : (لـوأُخرج قلبـي فُجعـل فـى يـدى هـذه اليسـار، وجـئ بـالخير فجُعـل فـى هـذه اليمنـى، ثـم قُربّـت مـن الأخـرى، مـا اسـتطعت أن أولـج قلبـي شـيئاً، حتـى يكـون الله عـز وجل يضعه)

والمقصـود مـن قـول مُطَـرف بـن عبـدالله، أن العبـد إذا أخـرج قلبـه ووضـعه فـي يـدهِ اليُسـري، ثـم جـاء بـالخير ووضـعه فـي يـدهِ اليُمنـي، فلـن يسـتطيع العبـد أن يُـدخل فـي قلبـه خيـر مهمـا حـاول أن يُقـرب يـداه مـن بعضـهما إلا بمـا أراد الله -عـز وجـل- أن يضـعه فيـه، فلـن نسـتطيع أن نُـدخل الخيـر فـي قلوبنـا إلا بتوفيـق الله -عـز وجـل-فالإنسـان عليـه أن يتبـرأ إلـى الله -عـز وجـل- مـن حولـه وقوتـه، ويعـرف أن هـذه القلـوب بيـد الله،وأن القلـب إذا امـتلأ حَزنـاً وكآبـة فلـن يشـفيه إلا الله -عز وجل-سبحان الله!

يسـتطيع الإنسـان أن يُحـرك رِجلـهُ أو يرفـع يـدهُ إن أراد؛ ولكـن هـل يسـتطيع أن يفعل ذلـك فـي قلبـه؟ لا والله لا يسـتطيع، فكيـف تتعامـل مـع قلـب لا سـلطانَ لـك عليـهِ؛ بـل لا سـلطان عليـه إلا الله -عـز وجـل- ولا معرفـةً لـك بأسـراره؛ فالله -عز وجل- هو من يعرف أسرار القلوب.

ألا فليعلم كل من أراد علاج قلبه اليوم، دون الاستعانة بربهِ أنه لن يزداد إلا مرضَا؛ لأن الله -عز وجل- وحده هو الذي يستطيع أن يُزيل ما في هذا القلب من المرض؛ فالذي يطلب الشفاء من غير الله يا لعظم خسارته.

- من يستطيع أن يَحُول بينك وبين الداء فَيمنعُ عنك الطاعة؟
- من الذي يُبدل الأمن خوفًا؟
- من الذي يقلب الكُره حُباً والحُب كُرهاً؟

الله -عز وجل- فلا تلتمس شفاء قلبك مما فيه من غير الله-عز وجل- و لتتبرأ من حولك وقوتك إلى الله سبحانه، فلن يُذهب مافي قلبك من غلٍ وحسدٍ وهمٍ إلا اللجوء إلى الله في إصلاح قلبك، وأن تسأل الله -عز وجل- أن يهبك قلباً سليماً مُنيباً مُخبتاً.

الدرس التاسع:

ساتحدث عن تقلب القلب:

القلب هو أرق أعضاء الجسم وأسرعها تأثراً بما يحيط به ويغشاه، ومن رقته أن تؤثِّر فيه أدنى خاطرة وأقل هاجس، فقد تأتي عليه خواطر تُبعدهُ وتُصرفهُ عن الله -عز وجل- ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأثر القليل عليه كثير، فالآفات إليه أسرع، وهو إلى الانفلات أدنى، ومن الانقلاب أقرب.

فإن قلب المرء وإن صفاً زمناً، وثبت على الإيمان فترة، واستلذ بحلاوته حيناً، فإنه معرّض للانتكاسة، ولكن إذا انتكس القلب فلا تُطيل مدة الانتكاسة، بل جاهد وذكر نفسك بالله ولا تجعل مشاغل الدنيا تُلهيك عن الذكر؛ فهذه هي طبيعة القلب ومنها اشتُقَّ اسمه.

فإنما سُمي القلب قلباً لأنه يتقلب وينشغل بالدنيا عن الآخرة، فلا تجعل هذا يُنسيك ذكر الله، بل جاهد حتى يرزقك الله -عز وجل- اجتهاداً أكثر بعد الفتور الذي مر بك

قال القرطبي وهو يشرح معنى كلمة القلب: (وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء أَقلبهُ قلباً أي رددته على بدأته، وقلبت الإناء أي رددته على وجههِ، ثم نُقِل هذا اللفظ فسُمِّي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه ولترددها عليه كما قيل، ما سُمِّي القلب إلا من تقلُّبهِ، فاحذر على القلب من قلبٍ وتحولِ)

قال النبي : (لقلب ابن آدم أسرع انقلاباً من القدر إذا استُجمعت غليانًا) فالقلب سريع التقلب، أسرع من القدر عندما تغلي سبحان الله! إن بقاء قلب المؤمن على الدرجة الرفيعة من الإيمان التي يجدها بعد أعظم العبادات قدراً، وعقب أكثر المواسم خيراً وفضلاً؛ أمر مستحيل؛ لشدة انشغال القلب بالدنيا وملذاتها، وما يعتريه فيها من أفراح وأتراح، وتعرّضها لغزوات الشيطان المُتلاحقة، وتلاعب اليهود على وتر الأهواء؛ وأنهم يلقوا على الإنسان الهوى والدنيا سبحان الله!

لكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يُصرِّفه حيث يشاء) ثم قال رسول الله : (اللهم مُصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)

فيجب أن ندعو الله -عز وجل- أن يصرف قلوبنا على طاعته؛ فإذا وجدت نفسك في انتكاسة أو فتور، فلتعلم أنك بعدت وانشغلت بالدنيا عن الله، وأنك لم تجتهد في دعاء النبي: (يا مُصَرِف القلوب، صرف قلبي على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك)

فنحن أحوج لهذا الدعاء من النبي -صلى الله عليه وسلم- فَالفتن اليوم أعم وأطغى، والقلب أضعف، فالعبد يحرص على ما بينه وبين الله -عزوجل-، والقلب هو أكثر ما يجعلك تصل ما بينك وبين الله -عز وجل-

فإذا أخذتك وديان الدنيا اجتهد بهذا الدعاء، اجتهد أن يَرُد الله -عز وجل- إليك قلبك، ويرزقك قلباً مشغولاً بالآخرة، قلباً عامراً بذكر الله، قلباً مطمئناً يخشع في الصلاة، يجتهد في ذكر الله -عز وجل- ويطمئن بهِ، قلباً يتدبر كتاب الله -عز وجل- فلا تفتر عن هذا الدعاء.

انظر إلى نفسك في رمضان أو الحج، تجد الإيمان عالياً جداً، ثم ينشغل القلب بملذات الدنيا، ويعتريه أفراح وأحزان، أو يتلاعب به الشيطان واليهود، أو

تتلاعب به الأهواء والنفس الأمارة بالسوء، لذلك فالإنسان دائماً يحتاج إلى سؤال الله -عز وجل- أن يرد إليه قلبه، اللهم رد إلينا قلوبنا رداً جميلاً، و أرزقنا قلوباً سليمة مطمئنة مُنيبة مُخبتة

اللهم إن قلوبنا انشغلت بالدنيا وغرقت فيها، فرد إلينا قلوبنا رداً جميلاً يارب. اللهم إنا سلمناك قلوبنا، فطهرها يارب واجعلها مُنيبة مُخبتة مستقيمة سليمة، و ارزقنا قلوبا حية خاشعة نَعبُدَك بها يارب العالمين.

الدرس العاشر:

في هذا الدرس سوف أتحدث عن:

- بعض ما قاله ابن القيم عن القلوب وأعمال القلوب.

أعمال القلوب أولى وأغلى من أعمال الجوارح لذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

← (ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يُميّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟! وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟! وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم ، فهي واجبة في كل وقت).

● والمعنى أن عمل الجوارح لا تنفع بدون أعمال القلوب، ومنها يتبين النية، فَأعمال القلوب تُميز بين المنافق الذي يُرأي بأداء العبادات، وبين المؤمن الذي يُخلص العمل لوجه الله -عز وجل- ابتغاء مرضاته، فالمؤمن يؤدي العبادة بقلبٍ سليمٍ حيٍ، سبحان الله! هو واقف بين يدي الله -عز وجل- فكيف يلتفت لغيره؟!

فلابد أن يشهد قلب العبد أن لا إله إلا الله، وأن يستحضر العبودية لله وحده، فالله أحق أن يُعبد، فَعبودية القلب أعظم وأدوم، وهي واجبه في كل وقت.

← وقال في موضع آخر: (فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح).

● القلب هو روح العبودية وأساسها، فإذا خلت العبادة من الإخلاص، أصبحت العبادة كالجسد بلا روح، تخيل أنك تؤدي الصلاة أو الزكاة أو أي عبادة بدون خشوع فلن تستشعر هذه العبادة، وبالعكس إذا خشعت في عباداتك فلن تتركها أبدا وستتذوق حلاوة الإيمان.

← وقال أيضاً: (فَمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها). ولهذا يسبق أصحاب القلوب أصحاب الجوارح بمراحل وعلى الدوام.

● معرفة أحكام القلوب هي أصل العبادة وأحكام الجوارح مُتفرعة منها، لذلك من يؤدي العبادة خاشعاً فيها، مُخلصاً لله، يبتغي مرضاته، يسبق هذا الذي يؤدي العبادة ببدنهِ فقط دون خشوع.

← (فالكيّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تُذهب المشقة وتُطيِّب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدَّم عليه بعمله).

● فالشخص الكيّس المُتأني الذي يؤدي العبادة بعلو همة وعزيمة وحب وإرادة وصدق نية لا يشعر بمشقة هذه العبادة؛ بل على العكس، سوف يستشعر لذة السير في طريق الله -عز وجل- لأن في قلبهِ اجتهاد يدفعهُ للعمل؛ ويتقدم العبد صاحب الهمة في العبادة على العبد الذي يؤدي العبادة دون همة؛ حتى إذا أصبح العبد ذو همة وعمل سبق من لديهِ همة دون عمل.

قال رسول الله: (أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعاً) وهذه إشارة أن علم القلب سبحان الله! سيضمحل وسط زحام الدنيا وعلومها والتكالب عليها؛ فلا تجد خشوع ولا طمأنينة في القلب؛ فَحينها ستكون قد سيطرت الدنيا على القلوب فلا يجد العبد خشوعاً في صلاتهِ ولا تدبر للقرآن وما إلى ذلك من عبادات، وهذا يكون دليل على خبث الباطن ومخالفة السر العلن؛ وعندها يفسد كل شيء، فتموت الأرواح وتذبل، فَتُسلط علينا الدنيا ونَزهد في الآخرة.

ومن هنا يجب علينا أن نجتهد في الوصول إلى الخشوع في العبادات بعد أن عَلِمنا أن أول ما سوف يُنزع من الأُمة الخشوع؛ ولنجعل هذا هماً عندنا، أن نسأل الله -عز وجل- في الصلاة وقراءة القرآن وفي كل العبادات.

فإذا قرأت القرآن أسأل نفسك هل أثرت هذه الآية في قلبي، هل امتثلت فيها لأمر الله واجتنبت نَهيه؛ وإذا أديت الصلاة اسأل نفسك هل خشعت فيها و استشعرتها. كل هذا يحتاج إلى جهاد وصبر ومثابرة.

الدرس الحادي عشر

* في هذا الدرس سوف أتحدث عن:

تفاوت الأجور على كل عمل بحسب حضور القلب

تَتفاوت الأجور في كل عمل حسب محتوى القلوب، ففي الصلاة، قد يُصلي الرجلان في صف واحد وبين ثوابهما كما بين السماء والأرض، كما قال ابن القيم (إن الرجلين ليقومانِ في الصف، وما بين صلاتهما كما بين السماء والأرض) فالأول قلبه خاشعاً وحاضراً تماماً، والآخر قلبه ساهيٍ ومُنشغل، فالأول أجرهُ وثوابه عظيم، والآخر أقل ثواباً وأجراً.

وقد يُنفق الأخوان مبلغاً واحداً، فينال أحدهما أجراً واحداً بينما الآخر ينال سبعمائه أجر أو أكثر، علي حسب ما في قلبه، فقد يكون هذا المال هو كل ما يَملكه، لكنه أخرجه عن طيبِ نفسٍ مُخلصاً للهِ -عز وجل-، أما الآخر، فقد يكون أخرجَ أردأ ما عنده،ولم تَجود به نفسه، ومن هنا يتفاوت الأجر على حسب ما في القلب. وقد يُدرك قلبان ليلة القدر، فيتضاعف أجر أحدهما عن الآخر أضعافاً مضاعفة.

أسأل الله -عز وجل- أن يُبلغنا شهر رمضان وأن يرزقنا أوفر الحظ والنصيب فيه، و أوفر الحظ والنصيب في ليلة القدر، إذاً يتضاعف أجر أحدهما بحسب اجتهاد القلب وخشوعه القلب وحضوره بين يدي الرب.

لحظة واحدة من عمل القلب، ولمحة من طرَف العين، وإمالة القلب عن الدنيا، تُعطي الإنسان فوزاً دون فوز، وأجراً دون أجر سبحان الله! فهي لحظة ولكنها لحظة قلبية قامت في قلب العبد فصعدت بهِ، أما الآخر كان قلبهُ غافلاً لاهياً فَنَقُصَ أجره، فالله في القلوب. اسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا قلوبا خاشعة سليمة منيبة مخبتة؛ تصلح أن نعبد الله -عز وجل- بها.

دوماً أجعل هذا همك، للوصول إلى القلب السليم، وإلا -كما أوضحت- سنظل واقفين أمام الباب ولم نفتح بالرغم أننا نملك المفتاح، هذا لأننا لم نُرزق جنة الدنيا وهي القرب من الله؛ ولم نُرزق حلاوة الإيمان لأن القلب ليس خاشعاً. ولم نجد حلاوة القُرب من مولانا. فسبحان الله! نسأل الله -عز وجل- أن يُصلح لنا قلوبنا.

إذاً القلب عليه الأساس، يقول سيدنا يحيى ابن مُعاذ (مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب) فقد يذهب الإنسان إلى أي مكان يُريد في الدنيا سيراً على الأقدام؛ لكن مفاوز الآخرة تقطع بالقلوب، سبحان الله!

تدبر قول الله -عز وجل- {ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡـَٔاخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا} [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ آية ٢١] أي أن الله تعالى فاضل بين عبادهِ في الدنيا، هذا فقير وهذا غني، بل وحتى هناك تفاوت في درجات الفقر والغنى، فهذا فقير لا يملك شيئاً وهذا فقير ولكن معه القليل وهكذا؛ فليس الناس على درجة واحدة في الغنى وليس الناس على درجة واحدة في الفقر؛ وَلَلۡـَٔاخِرَةُ وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا، فهناك منازل في الجنة ودرجات، اسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا أوفر الحظ والنصيب في الاخرة، وأن يجعلنا في أعلى عنده والدينا وجميع المسلمين.

فلماذا هناك درجات في الجنة؟

أنا لا أتحدث عن العاصي والمؤمن، بل أتحدث عن الطائعين، سبحان الله! هناك درجات بين الطائعين، لن ينال الطائعين نفس المنزلة، فهناك من

يكون في أعلى الدرجات وهناك من سيكون دونه، فَالجنةُ مائةُ درجة ما بين كل درجة ودرجة ما بين السماء والأرض الأرض. لهذا فإن مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، لكن مفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب، ولكي يصل العبد إلى تلك الدرجات العُلا في الجنة لابد أن يسأل الله -عز وجل- أن يرزقه قلباً خاشعاً، ويستعيذ بهِ من قسوة القلب.

سبحان الله! انظر إلى سيدنا عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- حين قال مخاطبا جموع التابعين المجدّين في عبادات الجوارح:
(أنتم أطول صلاة ، وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله، وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم)

يتحدث عن أهمية أعمال القلوب وتفاوت الأجر بسبب أعمال القلوب؛ يقول لهم أنهم أكثر اجتهاداً في العبادات من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكن أصحاب الرسول ،كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة وبذلك هم أفضلُ منكم؛ كانوا لا يريدون أي شيء من الدنيا وكان كل ما يَشغلهم الآخرة والوصول إلى أعلى الدرجات والمنازل عند الله.

وقال أحد السلف: (ما سبقكم أبو بكر بكثير صومٍ ولا صلاةٍ ولكنه شيء وقر في قلبه) سبحان الله! فقد يكون هناك من سبق أبو بكر-رضي الله عنه- بكثرة صيام أو صلاة أو عبادات أخرى، لكن أبو بكر سبق الأمة بما وقر في قلبه من خشوع وإقبال قلبه على الله -عز وجل-.

الدرس الثاني عشر

♦في هذا الدرس سوف أتحدث عن:

📌 <u>للوصول إلى القلب السليم الخاشع يجب علينا ألا نَرُد الدواء أو نتهاون فيه.</u>

أوضحت مِراراً وتِكراراً يا أخوات في هذه السلسلة أن مدار الأمر والدين كله أن يصل الإنسان إلى القلب الخاشع. فأعظم عقوبة يُبتلى بها المرء على الإطلاق أن يكون قلبه قاسياً؛ لأن القلب القاسي يزهد في الآخرة ولا يعمل لها؛ فلا خشوع في صلاة ولا تدبر للقرآن ولا حِرص على العبادات. لذلك كما ذكرنا، كان النبي ﷺ يتعوذ من قلبٍ لا يخشع. أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا القلب الخاشع الذي نعبده به.
لابد ألا يتهاون المرء ويرد الدواء أو يزهد فيه، فلا يزهد الإنسان في سماع المواعظ، بل يُكررها على قلبه حتى يخشع ويعمل بها، فكلما تكرر المواعظ كلما فتح عليك في العمل ولو جزءاً يسيراً.

يقول ابن القيم -وهو طبيب القلوب- وأكثر من فتح الله -عز وجل- عليه في علم التزكية؛(حذارِ حذارِ من أمرين لهما عواقب سوء؛أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك، فإنك تعاقب بتقليب القلب، وردِّ ما يَرِدُ عليك من الحق رأسا ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك، قال تعالى، {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام آية 110] فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والأمر الثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبَّطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك، قال تعالى، { فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ} [سورة التوبة آية 83]،فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنأ السلامة)

إذاً حذر ابن القيم من أمرين لهما سوء عاقبة:

<u>الأمر الأول:</u> رد الحق لمخالفته هواك، وعاقبته أن الله -عز وجل- يُقلب الأفئدة والأبصار عن هذا الحق لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة، فلا يعملون به. لذا كان الشيخ ابن عثيمين يقول: الإنسان يحذر من أن يَرُد الحق لأول وهله لأن العقوبة قد تقع عليه بألا يعمل بهذا الحق بعد ذلك.

<u>الأمر الثاني:</u> التهاون بالأمر إذا حضر وقته، وعاقبة هذا أن يُثبطك الله -عز وجل- عن مراضيه وأوامره؛ ولننظر إلى سيدنا كعب بن مالك الذي

كان يُريد أن يلحق بالصحابة في غزوة تبوك؛ ولكنه لم يلحق بهم في أول الأمر، لأنه تهاون بالأمر وظل يقول في نفسه "أَنا قَادِرٌ علَى ذلِكَ إذا أَرَدْتُ" حتى خرج المسلمون إلى الغزوة بدونهِ. فالإنسان إذا تهاون بالأمر قد يُثبط ويُقعد فلا يُوفق إليه.

وهذا ما أبكى أبو الدرداء -رضي الله عنه- عند موته وهو أشهر من عُرِف عنه التفكر وطول التدبر من صحابة النبي ﷺ حيث ظلَّت آية واحدة عالقة في ذهنهِ لا تُفارقه لحظة حتى عند موته، وكان مما هداه إليه تدبره أن هذه الآية هي من أهم ما قرأ؛ فما تذكر غيرها عند الوفاة.

فعن أم الدرداء أن أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول: (من يعمل لمثل يومي هذا؟! من يعمل لمثل ساعتي هذه؟! من يعمل لمثل مضجعي هذا؟! ثم يقول: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام آية 110])

فقد كان معروف عن سيدنا أبا الدرداء الصلاح وشدة العبادة والتفكر؛ فكيف حالنا نحن؟! -الله المستعان- وكأنه -رضي الله عنه- خشي أن يكون قد قصَّر في قبول الحق من نبينا ﷺ حين عرضه عليه أول مرة، وظن أنه لم يأخذه كما ينبغي بأقصى قوة وعزم وبأسرع استجابة من أول لحظة ، فعاتب نفسه على ذلك حتى عَلا النحيب قبل الرحيل.

فلابد أن يأخذ الإنسان الدين بقوة وهمة، ولا يَمُنّ على الله بعباداتهِ، قال تعالى، {يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ} [سُورَةُ مَرْيَمَ آية ١٢] كذلك قال تعالى، {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سُورَةُ البَقَرَةِ آية ٦٣]

فيجب على الإنسان أن يبذل أقصى ما لديه في الطاعة ثم يعاتب نفسه وكأنه لم يبذل شيئاً.
وردُّ الدواء بالنسبة لسيدنا أبا الدرداء يتمثل في عدم تناوله عمداً أو سهوا، أو تناوله مع عدم المواظبة عليه، أو الانصراف إلى غيره والتماس الشفاء في ما عداه، أو الاستخفاف بمفعوله وأثره؛ لكنه قد يكون قَصَر أو فَرَطَ، أو قد لم يجتهد في شيءٍ عُرض عليه أول مرة.

الإنسان يجب أن يكون على يقين ولا يَرُد الدواء، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه- أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه ، فقال ﷺ: اسقه عسلاً ، ثم أتى الثانية فقال: اسقه عسلاً، ثم أتى الثالثة فقال: اسقه عسلاً ، ثم أتاه فقال: فعلت، فقال ﷺ: « صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً » ، فسقاه فبرأ

نحن نحتاج إلى اليقين بالله في أمور كثيرة، وأن نُحسن الظن بالله -عز وجل- فالإنسان لابد أن يكون على يقين، وألا يفعل الأمر للتجربة، ولا يأخذ الأمر بشكٍ أو بحيرة؛ بل يوكل أمره إلى الله دائماً راضياً بقضاءِهِ -عز وجل-

كلما امتلأ القلب باليقين ازداد ثقة في الله -عز وجل- وكلما امتلأ القلب بالشك والريب كان نزول الدواء كنزول الماء بأرض قيعان لا تُمسك ماءاًولا تُنبت كلأ. لكن عندما يمتلئ القلب باليقين ويؤمن بما عند الله ويرضى بقضاء الله تؤثر فيهِ المواعظ وكلام الله.

فلماذا لا نوقن والله سبحانه وتعالى أرشدنا إلى الدواء وإلى أهمية القلوب وحثنا على الاجتهاد في الأمر. لماذا لا يكون عند الإنسان شك والله عز وجل يقول {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الأنعام آية 110] والله سبحانه حَالَ بينه وبين الحق لأنه أعرض عنه في أول مرة؛ فعوقب بأنه قد لا يصل.

إذا أيقن الإنسان بالشفاء و بأهمية خشوع القلب لاستكثر من الدواء ومن العمل الصالح ولِما فتر في عبادة الله حتى يصل إلى القلب الخاشع. فحال قلب الإنسان في الدنيا هو حالهُ عند موتهِ وفي القبر وفي الآخرة كما ذكرت في. نسأل الله عز وجل أن يرزقنا قلباً خاشعاً.

الدرس الثالث عشر

♦ في هذا الدرس سوف أتحدث عن:

📌<u>تدبر سريع لبعض الآيات التي ورد فيها الحديث عن قسوة القلوب.</u>

أسأل الله -عز وجل- أن يُذهب عنا قسوة قلوبنا، وأن يرزقنا قلوباً خاشعة تخشع في الصلاة وفي تَدَبر كتاب الله -عز وجل- تخشع في الدعاء وفي الذكر.

سبحان الله! حين يعيش المؤمن بقلب خاشع مع أسماء الله -عز وجل- الحسنى ويطمئن بذكر الله ويبصر من ذكر الله فإنه يدخل جنة الدنيا وهي الإقبال على الله -عز وجل- وعلى الآخرة و على مُناجاة الله -عز وجل-.

هذه الجنة يدخلها المرء بعد مُجاهدة لِيصل إلى القلب الخاشع المُطمئن لذكر الله، المُتدبر لِكتابه، المُناجي لله -عز وجل- وقد يقضي الإنسان عمره كله ولم يصل بعد إلى الخشوع، فلابد من المجاهدة حتى نموت ونحن في طريق المجاهدة. الله سبحانه سَيُحاسبك يوم القيامة على بَذلك للوصول إلى هذا القلب الخاشع، ولن يُحاسبك إذا وصلتي أم لا .

فقد يأتي نبي ومعه شخص واحد يتبعه، وقد يأتي نبي ومعه اثنان أو أكثر، فَالمحاسبة ليست بعدد المُتبعين وكثرتهم، بل المحاسبة ستكون على البذل والاجتهاد، أما الفتح فهو من عند الله -عز وجل- يَمُن به على من يشاء من عباده، قال تعالى{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ}[سُورَةُ العَنكَبُوتِ آية ٦٩]

وكلما جاهدت كلما وفقك الله -عز وجل- ويهديك سُبلك وييسر لك امرك؛ وعندما يطلع الله -عز وجل- عليك ووجد فيك صِدق المجاهدة وصِدق الدعاء وفقك أن تصل إلى هذا القلب الخاشع السليم؛ (وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ) الذين جاهدوا كثيراً لأن مرتبة الإحسان أعلى مراتب الدين وهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ان لم تكن تراه فإنه يراك؛ وهذا دليل على أن جهادهم كان شديداً حتى ووفقهم الله -عز وجل- لمرتبة الإحسان التي هي أعلى مراتب الدين.
تخيل حين يصل الإنسان لهذه المرتبة، أن يعبد الله كأنه يراه، سبحان الله! فكيف ستكون صلاتهُ وخشوعه، وكيف ستكون طمأنينة قلبهُ، أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا أعلى مراتب الدين.

أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا ويوفقنا أن نصل لمرتبة الإحسان ،أن نَعبد الله -عز وجل- كأننا نراه، أسأل الله-عز وجل- أن نكون من أوليائه، وممن يحبهم -عز وجل- عن أبي هريرة قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ (إنَّ اللَّه تَعَالَى قَالَ: منْ عادى لي وَلِيّاً فقدْ آذنتهُ بالْحرْب، وَمَا تقرَّبَ إلَيَ عبْدِي بِشْيءٍ أَحبَّ إلَيَ مِمَّا افْتَرَضْت عليْه، وَمَا يَزالُ عَبْدِي يتقرَّبُ إلى بالنَّوافِل حَتَّى أُحِبَّه، فَإِذا أَحبَبْتُه كُنْتُ سمعهُ الَّذي يسْمعُ بِهِ، وبَصره الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، ويدَهُ الَّتي يَبْطِش بِهَا، ورِجلَهُ الَّتِي يمْشِي بِهَا، وَإنْ سأَلنِي أَعْطيْتَه، ولَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّه) أسأل الله -عز وجل- أن يوفقنا لكل هذه المقامات العالية.

تدبر سريع للآيات التي ورد فيها الحديث عن قسوة القلب.

ورد الحديث عن قسوة القلب في سورة البقرة والمائدة والأنعام والزمر والحج؛ سأذكر كل آية وسوف أقف وقفة سريعة معها، يقول الله -عز وجل- في سورة البقرة

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سُورَةُ البَقَرَةِ آية ٧٤]

- سبحان الله! أحيا الله -عز وجل- الميت أمام اليهود واعطاهم آية عظيمة على إحياء الموتى؛ فقد أحيا القتيل أمامهم حتى يقول قتلني فلان ثم مات مرة أخرى؛ ورغم ذلك لم يستوعبوا ولم يفهموا ولم يُدركوا هذه الآية العظيمة التي تستوجب عليهم أنهم يعبدوا الله-عز وجل- ليل نهار و يقتادوا في الطاعة والخشية، ولكن الذي منعهم من ذلك {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ}

قد يقول البعض أن هذا الكلام موجه لليهود فقط، لا، فإن الحديث سواء كان للكفار أو اليهود أو المنافقين؛ فيجب على المؤمن أن يعتبر من تلك

الآيات ويخاف أن يتصف بصفة من هذه الصفات؛ أو أن يفعل مثل تلك الأعمال مما يجعل في قلبه قسوة.

يقول الشيخ ابن عثيمين عندما ذكر فوائد قول الله -عز وجل- {خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ} [سُورَةُ البَقَرَةِ آية ٧] قال ابن عثيمين بالرغم إن الحديث كان للذين كفروا أي الكفار، لكن أيضاً الإنسان يجب أن يخاف أن يُختم ويُطبع على قلبه.

لذا سبحان الله! كان من صفات المنافقين {وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ} [سُورَةُ النِّسَاءِ آية ١٤٢] إذاً يجب على الإنسان إذا قام إلى الصلاة، أن يُذَكِر نفسه بصفات المنافقين حتى يقوم إلى الصلاة وهو نشيط وذو همة؛ فيُذكرنفسه بأهمية الصلاة ويترك الدنيا ونزغات الشيطان، فنسأل الله -عز وجل- ألا نتصف بصفات هؤلاء المنافقين واليهود؛ فإذا ذُكرت النار وأنها أُعدت للكافرين، نُردد اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك.

إذاً قسوة القلب هي التي منعت اليهود من أن يتدبروا هذه الآية العظيمة من إحياء الموتى؛ يقول الشيخ السعدي، {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} أي اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة، {مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ} أي من بعد ما أنعم عليكم بالنعم العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم، وقسوة القلوب تمنع الإنسان من الانقياد للخير والحق، فإذا ذَكرت أحدهم أن (سبحان الله وبحمده يُغرس بها نخلة في الجنة) تجدهُ لا يحرص عليها ويزهد في أجرها، وهذا بسبب قسوة القلوب ولا حول ولاقوة إلا بالله!

ثم وصف قسوتها بأنها {كَالْحِجَارَةِ} التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أُذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

قال ابن كثير، اختلف علماء العربية في معنى قوله {فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ}، هل هي أقسى من الحجارة؟ أم مثل الحجارة؟ نَقَلَ ابن كثير أقوال كثيرة:

▪ذكر بعضهم أن (أَوْ) بمعنى الواو، أي أنها كالحجارة وأشد قسوة.

▪ ونقل رأي القرطبي أن (أَوْ) هنا للتخيير، أي أن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة.

ونقل رأى آخرين أن (أَوْ) بمعنى بل، أي فهي كالحجارة بل أشد قسوة من الحجارة.

▪ قال ابن جلال الطبري (أَوْ) بمعنى بعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة.
▪الشيخ السعدي رجح (أَوْ) ليست بمعنى بل، وقال أي لا تُقصر عن قساوة الأحجار، أي أنها ليست أقل.

إذاً بعد النظر إلى أقوال المفسرين، سنجد أن القلوب عندما تقسو مثل الحجارة فلن تَستمع إلى موعظة، ولن ترى الآيات ولن تُطبق أي أمر ولا حول ولا قوة الا بالله. لذا كان بعض السلف يقول (ما أُصيب عبد بمصيبة اشد من قسوة القلب) لأن قسوة القلب تمنع عن الإنسان كل خير.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه الآية {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ} وقوة القلب المحمودة غير قسوته المذمومة، فإنه ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، وليناً من غير ضعف.

أن يكون القلب قوي في أوامر الله -عز وجل- وتنفيذ شرعهِ فلا يأخذها بضعف، لذا قال النبي ﷺ (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) أي المؤمن القوي المُتمسك بدينه، الذي يُطبق كل أوامر ويجتهد في فعل جميع المستحبات، ويجتهد في إظهار دينه للآخرين وأمام الكفار ويغيظ الكافر، أحب إلى الله من المؤمن الذي في إيمانه ضعف أو تفريط.

يكون القلب قوياً خاشعاً وليس قاسياً، يبكي عند ذكر الجنة والنار، ويبكي من خشية الله وعلى تفريطه في حق الله.

الدرس الحادي عشر:

♦ في هذا الدرس سوف:

⟵ نستكمل الآيات التي ورد فيها الحديث عن قسوة القلوب.

⟵ أسباب قسوة القلوب.

← علاج قسوة القلب.

تحدثت في الدرس السابق عن تدبر الآيات التي ورد فيها الحديث عن قسوة القلوب؛ وكانت تلك وقفات تدبرية سريعة، وذكرت أقوال بعض الأئمة فيها. قسوة القلب تُنافي خشوع القلب، وتحدثت عن أن الخشوع هو أول ما يُرفع من الأُمة سبحان الله!

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال (أولُ شيء يُرفع من هذه الأمة الخشوعُ، حتى لا ترى فيها خاشعاً،وحسن شيخ الألباني هذا الحديث، قال إنه حديث حسن صحيح.

فكلما مرت القرون قَلَّ الخشوع، ولا تقوم القيامة إلا على شرار الناس، فكلما ابتعدنا عن عهد الصحابة، كلما ابتعدنا عن خير القرون وكلما قَلَّ الصَلاح في الناس. وهذا ملحوظ، فدائماً ما نُردد أن الأجيال السابقة كانت أطيب وأطهر قلوباً من الآن، وأن البركة والخير كانت أكثر مما نحن عليهِ الآن. لذلك وجب علينا أن نسأل الله-عز وجل- قلوباً خاشعة مُنيبة.

{قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ} {ٱلَّذِينَ هُمۡ فِى صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ} [سُورَةُ المُؤۡمِنُونَ: ١-٢]

أول صفة مدح الله -عز وجل- بها المؤمنون أنهم خاشعون في صلاتهم ومتذللون ومنكسرون لله -عز وجل-.

الخشوع يُعني التَذلُل والإخبات والانكسار لله -عز وجل-. فإذا كانت هذه أول صفة من صفات المؤمنين فلابد أن يسأل المؤمن الله -عز وجل- الخشوع. نسأل الله -عز وجل- قلباً خاشعاً. اللهم ارزقنا لذة الطاعة وحلاوة الإيمان.

{وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ} [سُورَةُ المُؤۡمِنُونَ آية ٣]

المؤمن ليس لديه وقت ان يلغو ويتكلم، لأن اللغو وكثرة الكلام يجعل الإنسان لا يخشع في الصلاة. قال بعض العلماء جاءت الآية {وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ} بعد {ٱلَّذِينَ هُمۡ فِى صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ} للدلالة على أن

المؤمن لا يستطيع أن يخشع ويجد الخشوع إلا بالإعراض عن اللهو، وعن كل ما يُلهي ويُبعد عن الله -عز وجل-

الآيات التي ورد فيها الحديث عن قسوة القلوب.

يقول الله تعالى:

{فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةًۖ} [سُورَةُ المَائـِدَةِ آية ١٣]

- لأنهم نقضوا العهد والميثاق مع الله، فاحذر نقض العهد والميثاق مع الله -عز وجل- المؤمن يفي بوعده وعهده سواءاً مع الله -عز وجل- أو مع البشر.

- قال الشيخ السعدي أي غليظة لا تُجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيده الهدى والخير إلا شرا.

نحن نقول في دعاء سيد الاستغفار في أذكار الصباح والمساء (اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)

انظر، نحن نقول في أذكار الصباح والمساء (وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) فهل نحنُ على عهودنا مع الله؟ فقد نكون ممن نقض عهده بسبب عدم البذل، فيجب علينا أن نبذل كل ما نستطيع في طاعة الله، وفي العلم والدعوة والخير، وفي كل ما يقربنا لله -عز وجل- ذلك لأن قسوة القلب تأتي بسبب التقصير والتفريط في الطاعات، وتضيع الأوقات في المعاصي. أسأل الله -عز وجل- أن يردنا إليه مرداً جميلاً.

يقول الله -عز وجل-

{وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ}[سُورَةُ المَائـِدَةِ آية ٤١].

● قسوة القلب وعدم طهارة القلب كانت سبب الوقوع في الفتن. أسأل الله -عز وجل- أن يُنجينا من الفتن وأن يُطهر قلوبنا من كل ما لا يُرضيه عنا.

يقول الله تعالى:
{فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ}[سُورَةُ الأَنۡعَامِ آية ٤٣].

● كذلك قسوة القلوب كانت سبب في عدم تضرع العبد لله، وعدم دعائه وإقباله على ربه.

فلو أنزل الله عليهم البأس، وجب عليهم أن يتضرعوا ويلجأون إلى الله -عز وجل- ولكن قسوة قلوبهم منعتهم عن التضرع والدعاء واللجوء إلى الله -عز وجل-. اسال الله العفو والعافية، كذلك زين الشيطان لكثير من الناس أعمالهم، وجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أفضل من غيرهم، ومن هنا كانت قسوة القلوب وتزيين الشيطان سبباً في بعدهم عن الله -عز وجل-.

يقول الله-عز وجل-{لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ} [سُورَةُ الحَجِّ آية ٥٣].

● يُلقِي الشيطان الفتنة في قلب العبد بعد أن زين له عمله؛ و ذلك لمن في قلبهِ مرض من كِبر وغِل وحسد وحقد وعُجب، وبسبب قسوة القلب فلا يتضرع ولا يدعو ولا يلجأ إلى الله -عز وجل-، وبالتالي يكون العبد عُرضة للفتن وللشيطان.

● يقول الشيخ السعدي (وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ) أي الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، نسأل الله -عز وجل- السلامة والعافية. فما يلقيه الشيطان يكون فتنة لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم.

● يقول شيخ الإسلام ابن تيمية جعل الله القلوب ثلاثة أقسام : قاسية، وذات مرض، ومؤمنة ومُخبتة.

يقول الله تعالى:{أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ} [سُورَةُ الزُّمَرِ آية ٢٢].

● فمن كان قلبه قاسياً بعيداً عن الذكر والإيمان، تجده لا يتأثر بالموعظة ولا بالقرآن ولا بغيره. لذا قال الله -عز وجل- بعد هذه الآية {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ} [سُورَةُ الزُّمَرِ آية ٢٣]
أسأل الله -عز وجل- أن يذهب قسوة قلوبنا.

● نقل البغوي عن مالك بن دينار، قال مالك بن دينار (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله -عز وجل- على قوم إلا نزع منهم الرحمة) فأعظم عقوبة يُعاقب بها العبد أن يكون قلبه قاسياً؛ لا تؤثر فيهِ المواعظ، والحل في كثرة الدعاء والتضرع، وأن تقرأ الآيات وتُرددها، وتجاهد وتبذل في الطاعة.

يقول الله -عز وجل-{أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ} [سُورَةُ الحَدِيدِ آية ١٦].

● سبحان الله! هذه الآية إذا رددها العبد بترتيل وخشوع وتدبر لَحَاسبَ نفسه ولَامَها على التقصير وعدم خشوع القلب؛ حاول أن تُمرر هذه الآية على قلبك واجهر بها واسأل نفسك: ألم يَحِنِ الوقت أن تخشع القلوب لذكر الله وكتابهِ، ولا تكن كالذين أعطاهم الله الكتاب فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم فلم تَعُد تُؤثر فيها المواعظ؟

● يقول ابن مسعود -رضي الله عنه- ما كَانَ بيْنَ إسْلَامِنَا وبيْنَ أنْ عَاتَبَنَا اللَّهُ بهذِه الآيَةِ إلَّا أرْبَعُ سِنِينَ. سبحان الله! اربع سنين ربنا عاتبهم أن قلوبهم لم يَعُد بها خشوع وإقبال على الله. لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم. فعندما تشعر بجفاء الطاعة والبُعد عن القرآن أعلم أنه بسبب قسوة القلب الله المستعان. أسأل الله عز وجل أن يُطهر قلوبنا من كل ما لا يرضيه عنا وأن يرزقنا قلبا خاشعا.

وانظر إلى قولهِ {فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ} فطول الغفلة والبُعد عن الله -عز وجل- يُوقع القسوة في القلوب؛ فلا تؤثر فيها المواعظ ولا الخير ولا الهُدي.

إذاً لنقرأ ونُرتل هذه الآية بخشوع ونُمررها على قلوبنا عشر مرات أو أكثر لنتدبر معناها ونسأل أنفسنا {أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ}

يقول ابن القيم (والمتدبر لكتاب الله إذا وجد القلب في آية اعداها ولو مائة مرة) كررها بصوت حسن وبخشوع واجهر بها ولو مائة مرة، فهناك فرق بين قراءة القرآن وتدبر معانيه وبين قراءة الصُحف التي نمر عليها سريعاً.
قال رسول الله ﷺ (مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ ، يَجْهَرُ بِهِ) أي ما استمع الله لشيء كسماعه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن ويجهر به . أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا خشوع القلب والعمل بما نتعلم.

اسباب قسوة القلوب:

■ طول الغفلة عن الله -عز وجل- {فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ}

■ المعاصي والذنوب والبُعد والإعراض عن الله -عز وجل-.

▪التساوي في المعاصي، أن يفعل العبد المعصية وراء المعصية ولا يعبأ بها.

■ أُلفة المعاصي والذنوب والتعود عليها، لا حول ولا قوة إلا بالله، فَالطبيعي عند بعض الناس عدم صلاة الفجر، أو الجهر بالمعصية، أو الكذب أو النفاق، فالأُلفة بالمعاصي تجلب قسوة القلب، فمن اعتاد على المعصية أعرض وتكاسل عن الطاعة، فلا يتأثر بالقرآن ولا المواعظ.

■ التعلق الزائد بالدنيا وعدم التفكر في الآخرة والموت وسَكراتُه، وضعف تعظيم الله -عز وجل- في القلوب وقلة الإيمان.

سبحان الله! تجد صاحب القلب القاسي ضيق الصدر قلقاً متوتراً؛ لا يطمئن ولا يرضى بقضاء الله في بعض احوالهِ.

علاج قسوة القلب

■ سؤال الله -عز وجل- قلباً خاشعاً كما كان حال النبي ﷺ في دعائهِ (اللهم يا مُقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) (اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)

■ أن نجعل الخشوع هماً عندنا والعمل لذلك، فليس الهدف سماع الدروس والتأثر المؤقت بها، بل العمل والبذل هو الهدف،
فالعبرة بالفعل قال تعالى {وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا }[سُورَةُ النِّسَاءِ آية ٦٦].

■ الاجتهاد في تدبر كتاب الله -عز وجل- وعندما تجد قلبك في آية، تقف عندها وتُكررها وتُمررها على قلبك وتجهر بها وتَتغنى بالقرآن لتصل إلى الخشوع.

■ معرفة الله وتعظيمه -عز وجل- ويأتي ذلك من خلال سماع دروس في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته عبر قنوات التليجرام والواتس.

هناك رسائل قصيرة لتدبر بعض الآيات، أو أقوال السلف مثل ابن القيم، التصفح في تلك الرسائل لم يأخذ منك وقتاً كبيراً لكنه قد يكون سبباً في توبة نصوحة أو خشوع القلب.

■ الإكثار من التوبة والذكر والاستغفار وسماع المواعظ والعمل بها.

■ محاسبة النفس ومجاهدتها على الطاعة وترك المعصية.

الدرس الخامس عشر

♦ في هذا الدرس سوف أتحدث عن:

← أهمية الاستماع إلى المواعظ.

← إفراط البعض في سماع المواعظ فقط وعدم الرغبة في سماع العلوم الأخرى.

← تفريط البعض في سماع المواعظ بحجة معرفتها.

أهمية الاستماع إلى المواعظ:

يقول الله -عز وجل-{وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا} [سُورَةُ النِّسَاءِ آية ٦٦]

إذاً ليست العبرة أن يستمع الإنسان إلى المواعظ فقط دون عمل، بالاستماع تثبت الموعظة ثم بعد ذلك يأتي العمل بها، قال تعالى (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ) أي أن العبرة بالفعل، ثم كانت النتيجة (لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا) فهناك من يستمع ولا يعمل، لذلك وجب علينا العمل بل والاجتهاد في تجديد النية بأن تكون خالصة لله -عز وجل-.

📌 إفراط البعض في سماع المواعظ فقط وعدم الرغبة في سماع العلوم الأخرى:

بعض الناس لديها إفراط في سماع المواعظ، أي أنهم يستمعون دروس كثيرة جدا عن المواعظ، وعن الجنة والنار، وعن القلوب وأعوان القلوب، هؤلاء ينظرون إلى العلم بهذا، فلا يريدون أن يتعلمون مثلا عن فقه الصيام، وإذا جاءت النية لأداء فريضة الحج، حينها فقط يطلبون دروس عن الحج لترقيق القلب، أما إذا لم تكن هناك نية لأداء هذه الفريضة وجاء

أمامهم درس عن الحج لا يستمعون، فَيَظلون لا يعلمون شيئاً عن فقه الحج وهكذا.

يجب علينا تزكية القلب والنفس بِدروس التزكية والرقائق. هناك من يستصعب العلم فلا يُريد أن يستمع إلى الموعظة فيقع في كثير من الأخطاء الأخرى. فهناك من يسمع مثلاً كثيراً عن الحج والايمانيات ولكنهُ ينسى السنن بحجة أنه لا يعرف.

إذاً على الإنسان أن يوازن الاجتهاد في العلم والاجتهاد أيضاً في سماع المواعظ. لابد أن يتعلم الإنسان العلم الذي يجب عليه، أنا أُصلي لابد أن أتعلم الصلاة، أنا تاجر لابد أن أتعلم التجارة حتى لا أقع في الربا؛ أنا ذاهب لأداء فريضة الحج لابد أن أتعلم فقه الحج وهكذا. فلابد أن يتعلم الإنسان الشيء المفروض عليه انه حتى يعمل به، وما لا يسعه جهله.

تفريط البعض في سماع المواعظ بحجة معرفتها:

كذلك هناك بعض الناس لديها تفريط في سماع المواعظ. والتفريط بمعنى الترك، بحُجة أنها استمعت لتلك المواعظ كثيراً وعلى علمٍ بها. وهؤلاء يسعون إلى تعلم العلوم الأخرى مثل القرآن وتعلم التجويد، أو تعلم الفقه. والعلم قد يُصيب الإنسان بنوع قساوة.

كما قال ابن الجوزي -رحمه الله- في صيد الخاطر (تأمَّلتُ العلم والميل إليه، والتشاغل به؛ فإذا هو يقوي القلب قوة تميل به إلى نوع قساوة فإني أكتب الحديث أرجو أن أرويه، وأبتدىء بالتصنيف أرجو أن أتمه، ولولا قوة القلب وطول الأمل لما وقع هذا، ثم ذكر رحمه الله: أن النافع للقلب الاشتغال بطول العلم مع تلذيع النفس بأنواع المُرققات، تلذيعاً لا يُخرجها عن كمال التشاغل بالعلم، فما تحصل به رقة القلب من من زيارة الصالحين أو شهود الجنائز وزيارة المقابر أو قيام الليل؛ كل هذا من الأمور التي تُطلب في اقتباس العلم)

فسبحان الله! إذاً التشاغل بالعلم يقوي القلب، لكن قوة تميل بهِ إلى نوع القساوة. لذا دائماً عندما تجد نفسك مثلاً سمعت دروس كثيرة ولكن ليست

بها ترقيق أو تزكية؛ تجد أن قلبك فيهِ قسوة، فتستمع إلى دروس رقائق في التزكية حتى يرق القلب

واستكمل الجوزي قائلاً أنه إذا بدأ علم يرجو تكملتهُ، وذلك بسبب القوة التي في قلبهِ وطول الأمل، ثم ذكر أن الاشتغال بطلب العلم ينفع القلب مع الاستماع إلى المواعظ، والرقائق، بحيث أن القلب يرق ويزهد في الدنيا ويُقبل على الآخرة.

رقة القلب أيضاً تحدث بزيارة الصالحين، فعندما نرى الصالحين نجتهد في الطاعة، وشهود الجنائز وزيارة المقابر التي تُذكرنا بالآخرة وتُزَهدنا في الدنيا، كذلك قيام الليل وما فيه من خشوع، كل هذه الأمور تُطلب في اقتباس العلم.

أيضاً يقول ابن الجوزي (ومن أسباب الانقطاع في العلم فوات هذه المعاني من طلابه) أي أن الطالب لا يدرك هذه المعاني، فعلى الإنسان أن يوازن بين طلب العلم والاستماع إلى المواعظ ويجتهد في العمل بهذا.

للأسف بعض الناس يُدخلها بعض الكبر فلا ترغب في سماع المواعظ اعتقاداً منهم أنهم على علم بها. لَكنَّ الأمر يتطلب اجتهاد وعمل وبذل، فمهما استمعت إلى مئات المواعظ ولم تعمل بها فهذا لا يفيد، وقد تستمع إلى الدروس والمحاضرات وتعمل بها فترة ثم تتوقف عن العمل بسبب وساوس الشيطان، أو الانشغال بالدنيا، وهذا أيضاً لا يفيد، فالأمر يحتاج إلى استمرار ومُتابعة وإخلاص.

سبحان الله! الموعظة تُذكرك بالسُنن والفرائض والأعمال الصالحة، فتجعلك تجتهد فيها وتَعمل بها، قال تعالى،{وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ} [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ آية ٥٥] فلا يجب النظر إلى المواعظ بنظرة سطحية، لأن هذا إعراض وكِبر، ولكن التنظيم مطلوب، فيجب على الإنسان ترتيب أولوياته،حتى إذا كان منشغلاً وأَجلَ الاستماع إلى المواعظ أفضل له من تركها والإعراض عنها، فقد تكون هذه المواعظ رزقاً ساقهُ الله إليك، قد تكون رسالة من الله، فقد يكون لديك تقصير في أمرٍ ما، ثم

تـأتي هـذه الموعظـة كـي تـؤثر فيـك حتـى تجتهـد فـي هـذا الأمـر الـذي قـد تكـون أثرت فيه.

وكمـا سبق وذكرنـا، فـلا تقـوم القيامـة إلا علـى شـرار النـاس، وكلمـا ابتعـدنا عـن عهـد النبـوة، كلمـا قَسـت القلـوب، ومـن هنـا فـنحن نحتـاج إلـى الاسـتماع إلـى المـواعظ حتـى وإن كانـت رقـائق أو إن كانـت تلـك المـواعظ لمـدة خمـس أو عشـر دقـائق، بـل والبحـث عـن تلـك الرقـائق والمـواعظ علـى قنـوات التليجـرام والــواتس لترقيــق القلــب، وهــذا يحتــاج جهــد وبــذل للابتعــاث عــن الــدنيا والمُلهيات التي تؤدي إلى قسوة القلوب.

يجـب أيضـاً ألا ننسـى الـدعاء، فلـو اطلـع الله -عـز وجـل- علـى قلبـك ووجـد فيـك أنـك تُريـد الوصـول إلـى القلـب الخاشـع، وانـك تُجاهـد للوصـول إلـى هـذا القلـب، فسـوف تصـل إلـى هـذا القلـب لا مُحالـة، وقـد ذكرنـا أن هـذا كـان حـال النبـي ﷺ فــي الــدعاء حيــث كــان يقــول (يــا مقلــب القلــوب ثبــت قلبــي علــى دينــك، يــا مصــرف القلــوب صــرف قلبــي إلــى طاعتك).ولنجعــل الوصــول إلــى القلــب الخاشع هماً عندنا.

قـال بعـض أهـل العلـم أن الـذي يُريـد الخشـوع يجـب عليـه ان يُعـرض عـن اللغـو، قـال تعـالى، {قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ} {ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ} {وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ}[سُورَةُ المُؤۡمِنُونَ: ١-٣]

إذاً المـواعظ مهمـة جـداً للقلـب، ولكنهـا لا تنفـع إلا المتقـين؛ لـذا قـال الله -عـز وجـل- {وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ} [سُورَةُ البَقَرَةِ آيـة ٦٦] الموعظـة والعلـم للنـاس جميعـاً، ولكـن لـن يَنتفـع بهـا إلا المتقـين. قـال بعـض الصـالحين (المُـراد مـن العلـم هـو أن تصـل بـه إلـى الله، فمتـى وصـلت إلـى الله فقـد أدى العلـم مهمتـه) كـذلك قـال بعـض العلمـاء (العلـمُ صـلاةُ السـر وعبـادةُ القلـب) فلابـد أن يكـون في نية وإخلاص، ونسأل الله -عز وجل- صلاح صلاح القلب.

أخـتم هـذا الـدرس بقـول الله -عـز وجـل- {وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ} [سُورَةُ الحَجِّ آية ٥٤]
إذاً علامـات الـذين أُوتُـواْ العلـم أنهـم يصـلوا بهـذا العلـم إلـى أن تُخبـت قلـوبهم وتصل بهم إلى الخشوع والذل والانكسار لله -عز وجل-.

أختم هذه السلسلة المباركة بقول ابن القيم، وقد شرحت هذا بالتفصيل من قبل،

يقول ابن القيم:

(حال العبد في القبر كحال القلب في الصدر، نعيماً وعذاباً، وسجناً وانطلاقاً، فإذا أردت أن تعرف حالك في قبرك، فانظر إلى حال قلبك في صدرك، فإذا كان قلبك ممتلئاً بشاشة وسكينة وطهارة، فهذا حالك في قبرك -بإذن الله-، والعكس صحيح؛ ولهذا تجد صاحب الطاعة وحُسن الخُلق والسماحة أكثر الناس طمأنينة، فالإيمان يُذهب الهموم، ويُزيل الغموم، وهو قرة عين المُوحدين، وسَلوة العابدين، من أَدَامَ التسبيح انفرجت أساريره، ومن أَدَامَ الحمد تتابعت عليه الخيرات، ومن أَدَامَ الاستغفار فُتحت له المغاليق)

إذاً حال العبد في القبر مثل حال القلب في الصدر، نعيماً وعذاباً، فَالقلب المُنَعم بالطاعة وذكر الله والقرب منه في الدنيا، سيكون هذا هو حاله في قبره ويوم بعثهِ بإذن الله-عز وجل-

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية (إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الاخرة وهي جنة الأُنس بالله والطمأنينة بذكره والاجتهاد في طاعته) قال الله تعالى، {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ}[سُورَةُ الرَّعۡدِ آية ٢٨].

فإذا أردت أن تعرف حالك في قبرك فانظر إلى قلبك في صدرك، هل هو ممتلئ بالطمأنينة والأنس بالله وزاهد في الدنيا؟ أم مليء بالتعاسة والهم والأحزان، وحينها ستعرف حال قبرك بإذن الله.

أسأل الله -عز وجل- أن يرزقنا قلوباً خاشعةً مُنيبةً.

اللهم يا مُقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك. اللهم يا مُصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك. اللهم أذهب عنا قسوة القلوب، وأذقنا لذة الطاعة وحلاوة الإيمان.

أسأل الله -عز وجل- أن يُطهر قلوبنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، اللهم طهر قلوبنا من كل ما لا يرضيك عنا يارب العالمين. ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب أسأل الله -عز وجل- أن يجعل هذه الكلمات في ميزان حسنات آباءنا وأمهاتنا؛ وأن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يجمعنا بهم في الفردوس الأعلى من الجنة دون سابقة عذاب ولا حساب.